

التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن

عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

# التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



## ملخص البحث

تمثل المقاصد القرآنية مكوّنًا رئيساً لهذا البحث، حيث ينظر الباحث في حجم التميز الذي قدمه ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، والذي جعل من تفسيره قاعدة لإعمال المقاصد في التفسير، وذلك من خلال عرض تميزه العلمي والاجتماعي وأثر ذلك في تكوين النظرة المقاصدية، وكذلك عبر تميزه في تناول المباحث ذات الصلة بالمقاصد القرآنية كالأغراض والإعجاز والتحقيقات البلاغية والتدقيقات الأصولية، ومن خلال استقرائه للمقاصد الأصلية التي جاء القرآن الكريم ليبيّنها. وقد سيرت ذلك وقدمته عبر منهجين: الأول الاستقرائي الوصفي لبيان مقولات ابن عاشور وصفاته التي اتسم بها، والثاني التحليلي الاستنباطي للنظر في حجم التميز الذي جعل من تفسير ابن عاشور مجالاً للأصالة والمعاصرة، وقد خصلت إلى جملة من النتائج، من أهمها: أن أبرز ما يميز ابن عاشور اهتمامه البالغ بعلم المقاصد إلى جانب اهتمامه بالتفسير، ويُعدُّ من أهم الذين لفتوا الأنظار إلى مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة، من خلال تأليفه لتفسيره التحرير والتنوير، ومن خلال تأليفه لكتابه مقاصد الشريعة، وكتاب النظام الاجتماعي في الإسلام، وكتاب أليس الصبح بقريب.

# التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد<sup>1</sup>

### المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المتقين، وأشهد أن نبينا وقدوتنا محمداً عبد الله ورسوله، وخيرة خلقه، صل الله عليه وعلى آله وصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم البعث والدين، أما بعد:

فإن أهمية دراسة منهجية التفسير لدى ابن عاشور تنبع من أهمية دراسة مناهج المفسرين عموماً، فمن المعلوم أن مناهج المفسرين تزود المتعلم بالقواعد والضوابط التي لا بد من مراعاتها في علم التفسير، كما أنها تزوده أيضاً بالأسس والقواعد المنهجية التي تمثل الأرضية التي يستطيع من خلالها الانطلاق في عالم التفسير، بالإضافة إلى كونها مرجع معرفي حول نشأة علم التفسير ومدارسه واتجاهاته المختلفة، كما أنها من مصدر من مصادر المعرفة لأشهر التفاسير وأئمة المفسرين.

بيد أن القضايا المنهجية الواضحة في تفسير التحرير والتنوير قد تأخذ أظراً استقرائية كمنهج ابن عاشور في التعامل مع المأثور، وفي التعامل مع الرأي، وأخرى إيضاحية كمنهجه في الترجيح وفي النقل عن المتقدمين، وهذه وتلك ليست ذات تعلق بمجالنا، وبالعبارة المقاصدية التي ننشدها هنا، ولذا فإننا سنركز على الوجوه ذات الصلة بالمقاصد القرآنية من المباحث التي تميز ابن عاشور بإيرادها بين ثنايا تفسيره.

إن منهجية ابن عاشور في دراسة المباحث ذات الصلة بالمقاصد قد أسهمت في كشف اللثام عن كثير من الأسس والقواعد المنهجية التي يمكننا الاعتماد عليها في إيراد مع المقاصد القرآنية في التفسير، فقد برع في التنقيب عن أوجه العلائق بين تلك المباحث وبين

<sup>1</sup> طالب دكتوراه في قسم دراسات القرآن الكريم والسنة النبوية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



المقاصد القرآنية، وكشف عن وجوه الارتباط بينهما، وقد أفضت إلى تقرير وسائل موصلة إلى فهم أدق للنص القرآني، وإن لم يقرر ذلك بنصه إلا أن المطلع يجد ذلك ويلمسه في منهجيته، ولعل إشكالية البحث تبرز في أن الكثير من التفاسير جانبت المقاصد القرآنية واقتصرت على الفهم الظاهري للنصوص، وركزت على مباحث واسعة تصرف النظر عن المقصود، الأمر الذي صرف عن تذوق النص القرآني، وإدراك حكم التشريع منه، ولذا فإن هذا البحث يسهم في بيان حجم الموروث العلمي، والمقاصدي، والإصلاحي الذي خلفه العلامة محمد الطاهر بن عاشور في شتى المجالات التعليمية منها، والفكرية، والاجتماعية، والتفصيل في الإسهام المقاصدي له تنظيراً وتطبيقاً، ولابن عاشور إسهاماته الكثيرة في مجال المقاصد القرآنية خصوصاً، ومقاصد الشريعة عموماً، والتأصيل لها، فإليه ينسب شرف المناداة بالتأسيس لعلم المقاصد، وجعله علماً مستقلاً، بالإضافة إلى كونه من رواد الفكر المقاصدي كما يتضح ذلك بجلاء للناظر في تفسيره التحرير والتنوير.

**المبحث الأول: التميز العلمي والاجتماعي وأثره في تكوين الاتجاه المقاصدي لدى ابن عاشور.**

يوضح هذا المبحث مسالك التميز العلمي، والاجتماعي لابن عاشور، ويبين أثر ذلك في رfd الاتجاه المقاصدي لديه، وذلك من خلال تناول أطراف حياته العلمية، وأنشطته الاجتماعية، وبيان نقاط الصلة بينها وبين تكوين النزعة المقاصدية عنده.

أ. التعريف بابن عاشور: (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م).

يشمل التعريف بابن عاشور مناحي متعددة، نركز من خلالها على أهم نقاط التحول الفكري والاجتماعي في حياته، وإسهاماته في خدمة المجتمع، وأهم الأحداث والوقائع التي أسهمت

<sup>٢</sup> ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (عمّان: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط٢،

# التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



في التأثير على عقليته، بالإضافة إلى إبراز نتاجه العلمي في مختلف المجالات، وينقسم التعريف به إلى الأقسام الآتية:

## ١. نشأته وتميزه العلمي والاجتماعي

قال الزركلي: "محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها"<sup>٣</sup>، واسمه كاملاً: محمد الطاهر الثاني بن الشيخ محمد بن محمد الطاهر الأول بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي ثم التونسي<sup>٤</sup>.

حفظ القرآن وبعض المتون العلمية، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية، وفي عام ١٨٩٣م دخل جامع الزيتونة الأعظم، وثابر على تعلمه حتى حصل على شهادة التطويح عام ١٨٩٩م<sup>٥</sup>.

ومما وصف به: "وهكذا اكتسب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ثقافة واسعة شملت التفسير والحديث والقراءات ومصطلح الحديث والبيان واللغة والتاريخ والمنطق وعلم العروض، وأعمل فكره فيما حصله وتوسع في ذلك وحلل فقد تخرج على أيدي جلة من علماء عصره امتازوا بثقافة موسوعية في علوم الدين وقواعد اللغة العربية وبيانها وبديعها إلى جانب القدرة على التبليغ، ومعرفة بطرق التدريس، وقدرة على تربية الملكات في العلوم"<sup>٦</sup>.

نشأ ابن عاشور مع جده الوزير وكان ينتقل معه في السكن بين المرسي ومنوبة وتونس، وكانت هذه الصلة تزداد وثوقاً على مر الأيام، وكانت نشأته علمية منذ نعومة أظفاره، فجده للأب محمد الطاهر ابن عاشور: "قاضي قضاة الحضرة التونسية" وجدته للأم

<sup>٣</sup> خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م) ج ٦، ص ١٧٤.

<sup>٤</sup> انظر: هيا ثامر مفتاح العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، (الدوحة: دار الثقافة، د. ط، ١٩٩٤م) ص ١٩.

<sup>٥</sup> انظر: بلقاسم الغالي، محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، (بيروت: دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٧هـ / ١٩٩٦م) ص ٣٩.

<sup>٦</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٢٧.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الوزير: محمد العزيز بوعتور، وبالإضافة إلى هذين الجدين هناك عاملين أيضاً ساهم جميعهم في تحديد سيرة ابن عاشور العلمية، وانطلاقه في عالم المعرفة على هذا النحو المتميز، وهما: الاستعداد الفطري الذي وهبه الله له، وكذلك شيوخه وعلماء عصره.

**فأما جده لأبيه** فقد كان واحداً ممن تصدروا للتدريس في الجامع الأعظم (جامع الزيتونة كما يطلق عليه التونسيون)، فدرس العديد من الفنون فيه كالنحو والبيان، وعلوم الأدب، وكتب حاشية على قطر الندى، وقد ولي القضاء عام ١٨٥٧م، وكان من أهم صفاته: العلم والعمل، والفقه والاجتهاد.

**وأما جده لأمه** فقد كان وزيراً في عهد الأمير الصادق باي، وقد تقلد العديد من المناصب الوزارية والرتب السامية، ولقد كان لهذا الجد أكبر الأثر في حياة ابن عاشور الطفل المتعلم والشاب، ورجل المجتمع الناضج، فقد بلغ من عنايته بحفيده أنه حين أنس إقبال سبطه على العلم، ونبوغه في اللغة، وتوفره على الأدب وهب له خزانة كتبه، فكانت خير هدية أهديت إليه حيث عكف على مخطوطاتها وأمعن في قراءاته لنفائسها<sup>٧</sup>.

**أما عن استعداده الفطري** لتلقي العلم والعمل به فقد تحدث عنه أحد تلاميذه فقال: "إنه موهبة فذة، له ذاكرة قوية نادرة، مع حدة ذهن وعمق في التفكير، وذلاقة في اللسان، وحلاوة في التعبير... كانت بديهته العجيبة وسرعة خاطره تمكنه من الجواب الحاضر عما يطرح عليه من الأسئلة وسائلوه من جلة الشيوخ العلماء..<sup>٨</sup>".

**وأما عن شيوخه وعلماء عصره** الذين أخذ عنهم ابن عاشور العلم فقد مثلوا أحد عوامل تميزه ومنهم: محمد الصالح الرضوي وهو مفتي أوزنقالاذ بالهند الذي حضر إلى تونس في عهد طلب ابن عاشور للعلم، وكذلك الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ إبراهيم المارغني، وسالم بو حاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار، ومحمد بن يوسف، ومحمد النخلي، وجميعهم من العلماء الذين أفنوا حياتهم في خدمة العلم في جامع الزيتونة وغيره من أماكن

<sup>٧</sup> المرجع السابق، ص ٢٩.

<sup>٨</sup> المرجع السابق، ص ٣٠.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



التعليم والإصلاح في تونس، وكانوا ممن نال شرف الإسهام الجليل في شتى مستويات الحياة الأدبية والاجتماعية، ومن هذا المزيج من علماء الإصلاح والدعوة والفقهاء تكونت شخصية ابن عاشور الفكرية، وكان لهم الأثر العميق في فكر وحياتة ابن عاشور. ولقد كان للعوامل الأخرى دور بارز في تميزه وابتكاره، وتشكيل شخصيته النادرة، والتي تمثلت في صفاء ذهنه، وقدراته الممتازة، بالإضافة إلى انحدار نسبة من سلالة العلماء، وكذلك أساتذته الذين أخذوا على يده فأناروا له الطريق، وبصّروه بتيارات عصره، وعمقوا ثقافته الإسلامية في مختلف العلوم<sup>٩</sup>.

بالإضافة إلى تأثره وصلته برجال الإصلاح في عصره من المشرق والمغرب العربي، فلقد كان ذا صلة بالعالم الشجاع: جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا<sup>١٠</sup>.

**ومن أبرز المؤلفات التي أتحف بها ابن عاشور المكتبة الإسلامية:** "كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و (الوقف وآثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتب كثيراً في المجالات<sup>١١</sup>.

**فأما في التفسير** فمؤلفه الشهير: التحرير والتنوير، وأصل تسميته تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد<sup>١٢</sup>، وقد اختصر تسميته بعد ذلك ليصبح التحرير التنوير.

**وأما في الحديث ومصطلحه:** فله كتابان كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، والنظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح.

<sup>٩</sup> بلقاسم الغالي، محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، ص ٣٩-٤٠.

<sup>١٠</sup> المرجع السابق، ص ٤٩-٥١.

<sup>١١</sup> انظر: خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ١٧٤.

<sup>١٢</sup> انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٨.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وأما في الفقه فقد ألف حاشية على التنقيح للقراي في أصول الفقه سمي: التوضيح والتصحيح، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وتحقيقات وأنظار، والوقف وأثره في الإسلام. وأما في النقد والأدب فقد كتب في: أصول الإنشاء والخطابة، وشرح قصيدة الأعشى، وشرح المقدمة الأدبية للمرزوقي، وديوان بشار بن برد شرح وتحقيق، والواضح في مشكلات المتنبي، وسرقات المتنبي، وديوان النابغة الذبياني. وفي البلاغة والسير لكل منهما كتاب فالأول اسمه: موجز البلاغة، والثاني في السيرة واسمه: قصة المولد.

وأما في الاجتماعيات فله من المصنفات: الكتاب الشهير: أليس الصبح بقريب، والكتاب المعروف: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وكذلك أصول التقدم في الإسلام، وهي من الكتب الهامة والمدعمة بالنظرة المقاصدية والنزعة الإصلاحية. وكل ما سبق من المؤلفات المذكورة والتحقيقات السالفة هو في عداد المطبوع، وهناك الكثير من المؤلفات التي لا تزال في فلك المخطوط تدور، وهي بحاجة إلى عناية الباحثين والدارسين، ومن أبرزها: في الفقه: أمالي على مختصر خليل، وآراء اجتهادية، والفتاوى، وفي الحديث: تعليقات وتحقيق حديث أم زرع، وفي الأدب: شرح معلقة امرؤ القيس، جمع وشرح ديوان سحيم، وفي النحو والبلاغة: أمالي على دلائل الإعجاز، غرائب الاستعمال، وله في التاريخ والتراجم: تراجم بعض الأعلام، وكتاب تاريخ العرب، وقلائد العقبان للفتح بن خاقان شرح وتحقيق، بالإضافة إلى العديد من المخطوطات والتحقيقات.

وأما عن نشاطه الاجتماعي: فقد مثل ابن عاشور دور الرائد الذي مارس نشاطه الاجتماعي جنباً إلى جنب مع نشاطه العلمي، وكأنه ينقل لنا صورة حية من صور الثمرة الحقيقية للعلم وهي العمل، ولقد تمثل نشاطه الاجتماعي في أدوار أهمها: التدريس، والقضاء، والفتيا، شيخاً للإسلام، شيخاً للجامعة الزيتونية.

ابن عاشور المدرس: شرع ابن عاشور في الإقراء بجامعة الزيتونة الأعظم بوصفه متطوعاً، ثم انضم إلى سلك التدريس بجامعة الزيتونة عام ١٩٠٠م، ونجح في سنة ١٩٠٣هـ، في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية، وفي عام ١٩٠٥م نجح في مناظرة التدريس من الطبقة



## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الأولى، وعين نائباً أول للدولة لدى النظارة العلمية بالجامع الأعظم (جامع الزيتونة)، وعين عضواً بمجلس إدارة المدرسة الصادقية، ثم عضواً بمجلس المدارس في نفس العام، ثم عين عضواً مرتين بلجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وبعد ثمان سنين من تاريخ تعيينه في جامع الزيتونة سلمت إليه مقاليد إدارة مؤسسة علمية عريقة وهي: جامع الزيتونة الأعظم، وعند فجر الاستقلال وعندما تكونت المؤسسة الجديدة: (الجامعة الزيتونية) المتولدة عن المعهد العظيم أسندت إليه رئاستها عام ١٩٥٦م، وبالإضافة لما سبق فقد كان ابن عاشور عضواً مراسلاً لمجمعي اللغة العربية في القاهرة ودمشق<sup>١٣</sup>.

وقد تميز ابن عاشور في مجال التدريس تميزاً جعل منه قدوة في طرائق تدريس العلوم، ومن أجمل ما قيل في هذا: "أما السمات التي ميزت الشيخ ابن عاشور عن غيره في مجال التدريس فإنه في المرحلة الأولى من معاناته للتدريس بالجامع الأعظم مع انتظامه وحسن قيامه حريصاً على استيفاء كل ما يتصل بدرسه من جوانب، وإن اقتضى النظر الصحيح بعدها، وعدم الحاجة إليها، وغزوها عن الفائدة بالنسبة لمن يحضر درسه من التلاميذ... وقد كانت نظرتة إلى التعليم غريبة عن وسطه التدريسي، بعيدة المدى في سياسته التعليمية، عميقة الأثر فيما أحدثه بعد من إصلاح وتطور، وكان الشيخ يتحلى بروح المتطلع التجديدي، يتجه بالنقد الفاحص البناء إلى ما كانت عليه أوضاع التعليم بالجامع الأعظم أيام دراسته وبعد تخرجه"<sup>١٤</sup>.

ولم يقتصر إسهامه التدريسي على جامع الزيتونة فحسب فقد كان إلى جانب ذلك مكلفاً بالتدريس في المعهد الصادقي، ودور هذا المعهد معروف لدى جميع التونسيين إذ امتاز بالجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية، وهو من المعاهد التي ساهمت في تكوين جيل جديد من الشباب كما يرى بعض الباحثين<sup>١٥</sup>.

<sup>١٣</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٥٣-٥٤.

<sup>١٤</sup> انظر: مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، مقالة لمحمد الحبيب ابن الخوجة، ص ١٤.

<sup>١٥</sup> انظر: مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي، ص ٧-٨.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وبهذا الدور الرائع الذي قدمه ابن عاشور في مجال خدمة العلم تتضح لنا صورة مشرقة من حياة هذا العالم الهمام الذي ما فتىء ينشر العلم حتى وهو في أرقى المناصب، وذلك لإيمانه بأن التعليم رسالة، ولنظراته التجديدية المتسمة بالنظر في مقاصد الأمور ومآلات الأحوال.

**ابن عاشور القاضي والمفتي - شيخ الإسلام:** وهذا جانب آخر من جوانب حياة ابن عاشور: القاضي والمفتي وشيخ الإسلام المالكي، فلقد عين ابن عاشور عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى عام ١٩١١م، وحاكماً بالمجلس المختلط العقاري في نفس السنة، وبعد ذلك بعامين عين قاضياً مالكياً، واستمر على هذا الحال لمدة عشر سنوات مكنته من أخذ الخبرة الكافية، ثم عين في عام ١٩٢٣م مفتياً ثانياً، ثم أصبح كبير أهل الشورى، وهو أعلى منصب يتولاه السادة المالكية قبل إحداث مشيخة الإسلام، وفعالاً وفي عام ١٩٣٢م سمي شيخ إسلام للمذهب المالكي، وهو أول من تولى هذا المنصب، وقد كان قبل هذا التاريخ شيخ الإسلام حنيفياً، ويلقب بشيخ الإسلام وبدون تخصيص.

ومما وصف به في هذا المقام: "كان الإمام الطاهر من أئمة رجال الدين، وشيوخ الإسلام، متمكناً في علوم الشريعة والأدب، في الأصول والفروع، حتى عد إمام عصره، وشيخ دهره، وتصدر جيله، وصار مقصد طالبي الفتيا في حياته"<sup>١٦</sup>.

وهذا رسم ابن عاشور بجهده علامة ناصعة في سماء القضاء والفتيا، خدم من خلالها وطنه وشعبه بكل إخلاص ووفاء، وقدم منهجاً فقهياً عملياً شابه فيه الأئمة الكبار.

**ابن عاشور المصلح الاجتماعي:** ومن أجل ما قيل عنه في هذا الباب: "إنه أول زعيم تونسي جعل التعليم إجبارياً في تونس، وإنه أول من دعا لتنظيم حملة رسمية لمحو الأمية، وقيل عنه أنه زعيم حركة إصلاح، وقائد نضال وكفاح، وبطل ثورة فكرية فتحت الأذهان والعقول، وتخرج من مدرستها التجديدية نبغاء عاملون، وأفذاذ مصلحون أثاروا وجه تونس

<sup>١٦</sup> انظر: مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، الشيخ الحبيب بن الخوجة، ص ١٣-١٤.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



والزيتونة، وكانت لهم الصدارة المقبولة بعدئذٍ في الكفاح السياسي، والكلمة المسموعة، والوزن المحترم<sup>١٧</sup>.

ولقد حمل ابن عاشور لواء الإصلاح مبتدئاً بإصلاح أهم مرتكزاته وهو التعليم، إذ أنه أهم قاعدة تركز عليها مقومات النهضة الفكرية والتطلعية لأي شعب أو مجتمع، ولقد رسخت بذرة هذا الإصلاح على الواقع فقد اختير عضواً لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة مرتين (١٩١٠-١٩٢٤م).

ولقد تمثلت إنجازاته في مجال إصلاح التعليم الزيتوني في ثلاثة أمور:

- الاهتمام بجامع الزيتونة وفروعه بالسفر إليها وتفقد أحوالها.
- الالتفات إلى سكنى الطلبة حيث أسس لها إدارة محكمة تعني بشؤون الطلبة، وأنجز مشروع الحي الزيتوني حيث تم بالفعل إقامة مأوى مستكمل الوسائل الصحية والراحة.
- وضع برنامج جديد للتعلم يرمي إلى تدارك النقص في التعليم الزيتوني، وهدفه من ذلك الارتقاء بمستوى التفكير<sup>١٨</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك العديد من الإنجازات التي مثلت رافداً من روافد الإصلاح الاجتماعي، والتي تمثلت في: "الاهتمام بالكتب الدراسية وأساليب التدريس، ولتحقيق هذا الغرض قام باختيار لجنة من مدرسي الزيتونة، للقيام على اختيار الكتب والبحث في طرق التدريس الموصلة إلى تحصيل المعلومات بأسهل الطرق، واستبدال الكتب القديمة بكتب سهلة التعبير، مع اشتغالها على كثرة التمارين حتى تقوي ملكة الطالب بمعالجة القواعد العلمية معالجة تقوم مقام السليقة، وقد اعتنت المشيخة اعتناءً زائداً بنوع من العلوم الفنون، وكان الاعتناء بها محدوداً، وهي الإنشاء والتاريخ وتاريخ الأدب، كما بذلت جهوداً في العلوم الطبية وعلوم الحساب، وروعي بوجه خاص في علمي الجغرافية والتاريخ معرفة

<sup>١٧</sup> انظر: مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، كلمة الأستاذ الطيب العنابي، ص ٤٠-٤١.

<sup>١٨</sup> انظر: المجلة الزيتونية، المجلد ٧-٨، السنة: ١٩٤٦، ص ١٣-١٤ و ١٧.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



جغرافية البلدان الإسلامية، كما وضع الشيخ برنامجاً وافياً لحفظ الصحة روعي فيه معرفة القواعد الأصولية لسلامة الجسم"<sup>١٩</sup>.

وبالمجموع فلقد تركز منهجه وغايته من هذا الإصلاح في تثقيف النشأة الزيتونية بعلوم الشريعة واللغة لتعيد الألق التاريخي للأمة، وقد حكى هذا المنهج والغاية بقوله: "إن قوام علمنا هو تثقيف النشأة الزيتونية بعلوم شريعته ولغتها، وما ينير الطرق لها في مسيرتها بين الأمم وتمدنها حتى نراها تناغي سلفاً ماجداً، وتسابق معاصرين سبقاً مرتضى، وأرى لزماً أن أبذل النصيحة لهذا المعهد بما في استبقاء سمعته الطيبة، بحيث يكون بمدارس شتى العلوم، وبحيث يكون طالبه وخريجيه مثلاً لحسن الإقبال على العلم، وللتخلق بمكارم الأخلاق الإسلامية، وللخبرة بما تدعو إليه المدنية الحقة ثم مثلاً للثقافة الكاملة وحسن القيام بما يناط به من العمل لخدمة أمته ودينه، يماثل كوكباً درياً يوقد من شجرة مباركة زيتونة..."<sup>٢٠</sup>.

وما يميز دوره في الإصلاح أنه كان يعيشه همماً متجذراً في نفسه، فمع إسهامه في التنظير للإصلاح الاجتماعي فقد قدم برنامجاً عملياً أيضاً، وهذا ما قاد بعضهم إلى وصفه بمكون الأجيال: "...لم يكن الشيخ ابن عاشور رجلاً من رجال السياسية بمعناها الضيق، ولكنه كان رائداً بطلاً من أبطال رواد الإصلاح بمعناه الشامل العريض، وكان في نفس الوقت ممتازاً يأتهم به الكثير، وكان على وجه الخصوص مكون أجيال"<sup>٢١</sup>.

وهكذا أرسى ابن عاشور دعائم فلسفته الإصلاحية التي اعتمدت على عنصري الدين واللغة العربية، فهما في وجهة نظره سلاحين يواجه بهما أعداء الإسلام<sup>٢٢</sup>، ولعل من أبرز ما يستفاد منه إلى يومنا هذا في مجال نظريات التعليم وسبل الارتقاء به كتابه القيم: "أليس الصبح بقريب"، والذي أودع فيه جمال نظريته الإصلاحية للتعليم، ومما يزيد المطلع معرفة بتأثر ابن عاشور بممارسة التعليم والإصلاح النظر في كتابه العظيم: "التحرير والتنوير"،

<sup>١٩</sup> المجلة الزيتونية، العدد: ٧-٨، السنة: ١٩٤٦م، ص ٢١-٢٣.

<sup>٢٠</sup> المرجع السابق، ٢٣-٢٤.

<sup>٢١</sup> مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، مقال الأستاذ الطيب العنابي، ص ٤٣.

<sup>٢٢</sup> انظر: هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٦٢.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



والذي حمل بين طياته سحب غيث مليئة بأمطار الفوائد والفرائد، وغزيرة بوافر التجارب والخبرات الإصلاحية.

### ٢. العوامل السياسية والثقافية في عصره

يقسم بعض الباحثين الحياة السياسية منذ مولد ابن عاشور إلى تاريخ وفاته إلى أربعة أقسام<sup>٢٣</sup>: فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي لتونس، فترة الاحتلال الفرنسي لتونس ١٨٨١م وممارساته، والحركة الوطنية في تونس ودورها في مواجهة الاحتلال، ثم فترة الاستقلال وحتى عام ١٩٧٣م، إلا أن هذا التقسيم قد يقودنا إلى تطويل لا نقصده في حديثنا هنا، وبالتالي سوف نركز على تأثير الحياة السياسية على شخصية ابن عاشور، ومن ثم الحياة الثقافية.

لقد مثلت الحياة السياسية حالة من الاضطراب والفتن في الواقع التونسي الذي ولد فيه ابن عاشور، فمع مولده وعندما كان عمره سنتين اجتاحت القوات الفرنسية الأراضي التونسية، وبسطت نفوذها، وعمدت إلى طمس معالم السيادة القومية التونسية، وحاولت إغراء التونسيين على التجنس بالجنسية الفرنسية، ولقد مثلت كل هذه التحديات دوراً صعباً على الحركة الوطنية التونسية، والتي هدفت إلى مقاومة المستعمر الفرنسي ونشر التعاليم الإسلامية<sup>٢٤</sup>.

لقد كان ظهور الحركة الوطنية على أيدي محمد السنوسي والبشير صفر الذي يعتبر بحق أباً للنهضة التونسية الحديثة، والذي قام بزرع بذور الوعي بين الشباب التونسي، وظلت الأحوال على هذا النحو من التوتر والشد والجذب من قبل التونسيين والمستعمر الفرنسي إلى عام ١٩٥٦م، حيث أعلن استقلال البلاد، وألغى النظام الملكي، وأخذ بوقبية ورفاقه رسمياً مقاليد الحكم بالبلاد.

وفي ظل هذه الظروف العصيبة تشكلت شخصية ابن عاشور فنشأت لديه النظرة الإصلاحية التي ظهرت جلية في دعوته ونشاطه العلمي، وأسهم في رأب الصدع الذي أحدثته الاستعمار بين أبناء المجتمع التونسي، وقاوم تلك الظروف بحكمة وحلم حتى تحقق للشعب

<sup>٢٣</sup> انظر: هيا تامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٣٥.

<sup>٢٤</sup> انظر: المرجع السابق، ص ٣٥-٣٧.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



التونسي ما كان يدعو إليه ابن عاشور، وكان لإسهامه في السياسة بالغ الأثر في الحياة التونسية، مع أنه صمت طويلاً إزاء الأحداث السياسية في فترة الاحتلال، ولعل الحياة الثقافية ستزيد الأمر وضوحاً عنه وعن صمته وإسهامه.

ولقد مثلت الثقافة التونسية حتى عام ١٨٨١م ثقافة إسلامية عربية خالصة، وكان التعليم القرآني يلحن في الكتابيب، ثم يكتمل في المسجد الكبير، حيث تتكون الإطارات الدينية والإدارية للوطن، ويجد المستقري لتاريخ تونس الثقافي والسياسي أن هناك دعائم خمس أثرت في مجرى الأحداث الفكرية والثقافية والنهضة التونسية بشكل عام، وتتلخص هذه الدعائم في الآتي:

١. الدور الإصلاحي الذي اضطلع للقيام به الوزير المصلح خير الدين باشا، والذي سبق ابن عاشور وساهم في إبراز النظام النيابي وتنظيم الوزارات، وأنشأ مكتبة العبدلية حول جامع الزيتونة.

٢. إنشاء المدرسة الصادقية والتي كانت ذات تعليم عربي ديني متين ساهمت في إثراء الثقافة التونسية.

٣. تنظيم التعليم الزيتوني تضمن إنشاء قانوناً خاصاً لجامع الزيتونة.

٤. إنشاء المكتبة العبدلية والتي ساهمت في نشر المعرفة والآداب.

٥. تشجيع حياة الطباعة والصحافة والنشر ومن أهم ذلك إصدار جريدة الرائد الرسمية<sup>٢٥</sup>.

أما عن الدور الثقافي الذي لعبه ابن عاشور وهو يهمننا في هذا المقام، فقد اتضح في إحياء تلك الدعائم الخمسة السابقة، بالإضافة إلى مقاومته لما وجدته من الاضطرابات السياسية والثقافية التي افتعلها الاحتلال الفرنسي آنذاك.

"وفي عام ١٨٩٨م صدرت بمصر مجلة المنار "للسيد محمد رشيد رضا" تدعو بتوجيه الشيخ محمد عبده إلى تأييد حركة الإصلاح التعليمي وتقرنها بدعوة الإصلاح الديني... وفي

<sup>٢٥</sup> انظر: المرجع السابق، ٤٠-٤٥.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



عام ١٩٠٣م زار الأستاذ الإمام تونس، واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح، واستقبله عظماء البلاد وعلمائها، وكان أكثر الناس التفافاً حول الشيخ محمد عبده هم رجال المدرسة الخلدونية، وجريدة الحاضرة والشيخ سالم بو حاجب، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وهو يومئذٍ شاب في الرابعة والعشرين، يعد من أبرز مدرسي الجامع شباباً وذكاءً وعلماً وأدباً، ومن السابقين في تأييد الدعوة الإصلاحية...<sup>٢٦</sup>.

وازدهرت كذلك الحياة العلمية بتونس، وانتعشت عزيمة التحرير والتأليف وظهرت جليلة في شخصية ابن عاشور، "وفي سنة ١٩٠٦م تكونت جمعية قدماء الصادقية، وكانت المحاضرات تلقى فيها بالفرنسية من قبل رجال الفكر والكتاب الفرنسيين، ثم فتح باب المحاضرات باللغة العربية، وقام الشيخ الطاهر ابن عاشور بإلقاء أول محاضرة باللغة العربية، هي أول محاضرة عربية بتونس، كان موضوعها (أصول التقدم والمدنية في الإسلام) ثم تبعه غيره...<sup>٢٧</sup>.

وهكذا نشأت شخصية ابن عاشور بين هذه التحديات التي انتصر عليها، وخرج راجحاً فيها من ناحيتين:

**الأولى:** بما جذره من رؤية إصلاحية عميقة نبعت من صلب الواقع الذي عاشه.

**والثانية:** بما خلفه من تراث ثقافي وعلمي صاحبه دور إصلاحي بارز، "والحق يقال فقد كان للشيخ ابن عاشور وأضرابه وتلاميذه الدور الأساسي في تلقين الأجيال الصادقية اللغة العربية، وتعليمهم التاريخ الإسلامي والفقهاء والتوحيد، وغرس القيم الإسلامية في نفوسهم طيلة عهد الحماية فكان ذلك التعليم هو الدرع الواقي للشباب الصادقي من الانزلاق في تيار الفرنسية والمسوخ الثقافي والروحي، بل إن ما كان يقوم بهم شائخ الزيتونة من دروس بالمعهد الصادقي هو الذي كان المنطلق لعملية التفاعل الثقافي، إضافة إلى أن هذه

<sup>٢٦</sup> انظر: محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الفكرية والثقافية بتونس، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط ١، ١٩٩٣م)

ص ٧٤-٧٥، وانظر: بلقاسم الغالي، محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، ص ٣٢.

<sup>٢٧</sup> المرجع السابق، ص ٧٦-٧٨.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الدروس هي التي ربت خميرة الوعي القومي، والإيمان الديني، والاتجاه الأخلاقي، وهي مكاسب من أنصع مميزات تونس المستقلة<sup>٢٨</sup>.

### ب. تمييز ابن عاشور في تفسيره:

مما لا شك فيه أن عالماً مثل ابن عاشور مارس التدريس والإفتاء والقضاء لا بد له من أن يعيش معظم وقته يتنقل بين التراث الإسلامي، وينهل من المكتبة الإسلامية، على اختلاف في المصادر والمراجع التي يرجع إليها، في مختلف العلوم، وسائر الفنون، وقد ظهر تأثير ذلك على شخصية ابن عاشور من خلال مؤلفاته القيمة والتي منها التحرير والتنوير، ويمكننا تقسيم التعريف بتفسير التحرير والتنوير إلى النقاط الآتية:

### مصادر ابن عاشور في تفسيره

لقد ظهرت مصادر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير من خلال ما كان يستند إليه من النقول أو الإشارات للمصادر والمراجع التي رجع إليها طول كتابته للتفسير فقد كان أحياناً يصرح باسم الكتاب، أو باسم المؤلف، أو بهما معاً<sup>٢٩</sup>.

ومما صرح به في مقدمة تفسيره أهم التفاسير التي يراها من وجهة نظره الأكثر شيوعاً، وتأثيراً حيث يقول: "وإن أهم التفاسير تفسير الكشاف و المحرر الوجيز لابن عطية ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الألوسي، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي من تقييد تلميذه الأبي، وهو بكونه تعليقاً على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن وتفسير الأحكام، وتفسير الإمام محمد ابن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين

<sup>٢٨</sup> انظر: مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٧٨م، كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي وزير الشؤون

الثقافية في ذكرى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ص ٧-٨.

<sup>٢٩</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ١٢١.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني<sup>٣٠</sup>، ويمكن تلخيص أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن عاشور في تفسيره فيما يأتي:

### مصادره في التفسير وعلوم القرآن:

ما سبق من التفاسير المذكورة اعتمد عليها ابن عاشور، فقد كان لا يغفل ذكر تلك المصادر، وزيادة على ما ذكر سابقاً فقد رجع في ثنايا تفسيره إلى الكشاف للزمخشري، والتعريفات للجرجاني، وإلى تفسير ابن كثير، وإلى البغوي، وإلى كتب الأحكام في تفسير القرآن لكل من ابن العربي والخصاص، وكما اعتمد اعتماداً كبيراً على السيوطي في الإتيان، وعلى الواحدي في أسباب النزول، وهما المصدران الوحيدان في علوم القرآن اللذان اعتمد عليهما.

وقد ظهر اعتماده في النقل والأخذ والاستشهاد على التفاسير الآتية:

الكشاف للزمخشري وقد كان لابن عاشور موقفاً واضحاً ومتميزاً منه<sup>٣١</sup>، ومفاتيح الغيب للرازي، وتفسير البيضاوي، وروح المعاني للألوسي، وأحكام القرآن للسيوطي. كل المصادر التي اعتمد عليها ابن عاشور لم يتابعها كلية، وإنما استفاد منها، وأضاف عليها الكثير خاصة في باب المقاصد، والذي كان أبرز ما يميز تفسيره.

### مصادره في الأحاديث النبوية:

<sup>٣٠</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٩٧م) ج ١، ص ٧.

<sup>٣١</sup> فقد كان يورد قول الزمخشري، ولا يتوانى في الرد عليه، ومن ذلك رده عليه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُّؤْمِنَةً حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْرَبْتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، يقول ابن عاشور: "ووقع في الكشاف حمل الأمة على مطلق المرأة؛ لأن الناس كلهم إماء الله وعبيده وأصله منقول عن القاضي أبي الحسن الجرجاني كما في القرطبي وهذا باطل من جهة المعنى ومن جهة اللفظ، أما المعنى فلائنه يصير تكراراً مع قوله: ولا تنكحوا المشركات إذ قد علم الناس أن المشركة دون المؤمنة، ويُقصد المقصود من التنبيه على شرف أقلّ أفراد أحد الصنفين على أشرف أفراد الصنف الآخر، وأما من جهة اللفظ فلائنه لم يرد في كلام العرب إطلاق الأمة على مطلق المرأة، ولا إطلاق العبد على الرجل إلاّ مقيدتين بالإضافة إلى اسم الجلالة في قولهم يا عبد الله ويا أمة الله، وكونُ الناس إماء الله وعبيده إنما هو نظر للحقائق لا للاستعمال، فكيف يخرّج القرآن عليه" (انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٣٦٢).

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



بدأت أكثر المصادر تأثيراً على تفسير ابن عاشور في مجال الاستشهاد بالأحاديث النبوية أخذته من صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والنسائي، والترمذي، وأبو داود، ومالك، وأحمد بن حنبل، والطبراني، والبزار في مسنده، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه والدارقطني<sup>٣٢</sup>، وقد كانت أولى مصادره في نقل الأحاديث صحيح البخاري، ثم يليه صحيح مسلم.

### مصادره في الفقه والأصول:

الناظر في تفسير ابن عاشور يرى أن أكثر اعتماده إزاء استدلالاته الفقهية يتركز على مذهب الإمام مالك، ثم يتساوى الأمر بعد ذلك على سائر الفقهاء، ومما يعتمد عليه ابن عاشور كذلك في استشاداته الفقهية ما ينقله عن ابن رشد في بداية المجتهد، والهداية في الفقه، وابن العربي في أحكام القرآن، وابن حزم في المحلى، والشاطبي في الموافقات، وغيرهم<sup>٣٣</sup>. ومصادره في الفقه تدل على اعتماده على الكتب الأصيلة في المقاصد، والتي جسد فيها نظريته المقاصدية من خلال تفسيره.

### مصادره في العقيدة وعلم الكلام:

لقد كان للإمام الغزالي أثر كبير على ابن عاشور، فهو يتصدر قائمة ابن عاشور الفلسفية العقدية، وذلك من خلال كتبه: الإحياء والمستصفي، والمنقذ من الضلال<sup>٣٤</sup>. كما يظهر بعض المؤلفات تأثيراً عليه من هذه الناحية ومنها: مؤلفات العز بن عبد السلام، وسعد الدين التفتازاني في كتابه شرح المقاصد في علم الكلام، وابن العربي في العواصم والقواصم، وأبو علي ابن سينا في الإشارات.

<sup>٣٢</sup> هيا ثامر المهنا، الشيخ ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ١٣١.

<sup>٣٣</sup> انظر: المرجع السابق، ص ١٣٢-١٣٥.

<sup>٣٤</sup> ومن ذلك استشهاده بكلام الغزالي في أكثر من موضع ومنها: عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، حيث يقول: "وأشار أبو حامد الغزالي في كتاب الزكاة من (الإحياء) إلى أن المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم تنفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح..." (انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٤٤).

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وتدل على ذلك استشهاده التي كان يستشهد بها من هذه الكتب، والتي لا يتسع المقام لإيراد نماذج منها.

### مصادره اللغوية والنحوية:

تميزت مصادر ابن عاشور اللغوية والنحوية بالتعدد والتنوع، مما أضف على تفسيره طابع خاص، وقال متميز، "ومن أكثر الأسماء لمعاناً في التحرير والتنوير عبد القادر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وسيبويه في الكتاب، ثم السكاكي صاحب مفتاح العلوم، وتلاحق بعد ذلك الأسماء والمؤلفات اللغوية لتزدحم على صفحات التحرير والتنوير من أمثال شرح المفصل لابن الحاجب، ومختصر ابن الحاجب شرح ابن هارون التونسي، والتوضيح على مختصر ابن الحاجب، والقزويني في الإيضاح والتلخيص، ومغني اللبيب لابن هشام، ونهاية الإيجاز للرازي، ومن أمثاله أيضاً الأشباه والنظائر للسيوطي والخليل"<sup>٣٥</sup>.

ومما سبق من ذكر المصادر التي اعتمد عليها ابن عاشور يتضح لنا بجلاء أهم المصادر التي تشكل عليها تفسير التحرير والتنوير، وأثرت على منهجيته، والتي تدل على سعة الاطلاع وعمق التأصيل اللذان تحلى بهما ابن عاشور، ونظرته المتفردة في إيراد واستيحاء الأقوال والنقول، وما سبق لا يعني الحصر فلربما استشهد ابن عاشور ببعض الشواهد والدلالات من غير ما سبق ذكره، وما ذكر على سبيل الاختصار لا على سبيل الإجمال.

### مقدمات تفسير التحرير والتنوير

ابتدأ ابن عاشور تفسيره بمقدمات عشر، ذكر فيها أسس المنهجية التي سار عليها في تفسيره، حيث يقول عنها: "وها أنا ابتدئ بتقديم مقدمات تكون عوناً للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير"<sup>٣٦</sup>.

<sup>٣٥</sup> هيا ثامر المهنا، الشيخ ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ١٣٨-١٣٩.

<sup>٣٦</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص ٢٤.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وقد اشتملت هذه المقدمات ذكر أصولاً وقواعد ارتآها ابن عاشور للمفسر؛ لتكون نبراساً له أثناء تفسيره لكتاب الله الكريم، والتي تتضح من خلالها منهجيته المفضلة لتفسير القرآن الكريم، والتي مزجها بالمأثور والرأي ومقاصد القرآن، والإعجاز، وقد سمي هذه المقدمات بتسميات جميلة، والتي سأذكرها مع اختصار لأهم مضامينها، وإلا فهي تستحق إفرادها بمؤلف<sup>٣٧</sup> لأهميتها وحسن ما فيها، وهي كالآتي:

### المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً

تناول ابن عاشور في هذا المقدمة الحديث حول التفسير والتأويل مبيناً معنى التفسير في اللغة والاصطلاح وقد توصل ابن عاشور إلى أن تعريف التفسير هو: "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"<sup>٣٨</sup>، وبين رحمه الله أن حق علم التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته<sup>٣٩</sup>.

### المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير

أما في المقدمة الثانية فقد تناول ابن عاشور مصادر علم التفسير ومن أين يستمد، فتحدث عن العربية التي يراد منها حسب رؤيته: "معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم"<sup>٤٠</sup>، ثم تعرض لذكر الآثار وأسباب النزول، والقراءات وأهميتها في التفسير، وصرح بعدم اعتبار مادة أصول الفقه في التفسير.

### المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير بالرأي

أما المقدمة الثالثة فقد أثبت فيها ابن عاشور صحة التفسير بغير المأثور، حيث يقول: "ثم لو كان التفسير مقصوراً على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرأ،

<sup>٣٧</sup> ومن الذي أسهموا في إفراد هذه المقدمات العشر بالتحقيق والتدقيق الدكتور: محمد الطاهر الميساوي، انظر: (محمد الطاهر ابن عاشور، مقدمات التحرير والتنوير، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (كوالالمبور: دار التجديد، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

<sup>٣٨</sup> ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ١١.

<sup>٣٩</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٣.

<sup>٤٠</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٨.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم<sup>٤١</sup>. وقد رد على الشبهة التي نشأت من الآثار المروية من التفسير بالرأي بخمسة ردود قوية، ورد على القائلين بالتفسير الإشاري، وهم الصوفية.

### المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر

أبان ابن عاشور في هذه المقدمة وجوب علم المفسر بالمقاصد الأصيلية التي جاء بها القرآن الكريم وهي: إصلاح الاعتقاد، وتهذيب الأخلاق، التشريع وهو الأحكام عامة وخاصة، وسياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة، القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والتعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، والموعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وأخيراً الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول<sup>٤٢</sup>، وسوف نتناول هذه المقاصد في المطلب الثاني من هذا المبحث بالتفصيل والتمثيل.

### المقدمة الخامسة: أسباب النزول

أوضح ابن عاشور في هذه المقدمة أهمية أسباب النزول في علم التفسير، وبالمقابل انتقد الذين اعتقدوا الخطأ في أسباب النزول، المكثرين من البحث عن أسباب النزول الذين قالوا أن لكل آية من القرآن سبب نزول<sup>٤٣</sup>.

### المقدمة السادسة: في القراءات

يرى ابن عاشور أن للقراءات حالتين من جهة اتصالها بالتفسير: الأولى لا تعلق لها بالتفسير بحال، والثانية لها تعلق من جهات متفاوتة<sup>٤٤</sup>، فالحالة الأولى تتضمن اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات، والحالة الثانية فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات، واختلاف الحركات فمن هذه الجهة لها تعلق كبير بالتفسير.

### المقدمة السابعة: قصص القرآن

<sup>٤١</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨.

<sup>٤٢</sup> انظر: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩-٤٢.

<sup>٤٣</sup> انظر: المرجع السابق، ج ١، ص ٤٦-٤٧.

<sup>٤٤</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٥١.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



أما المقدمة السابعة فقد خصصها ابن عاشور للحديث حول القصص القرآني، وما تميز به ومناسبة سوق القصة في مكانها المناسب، فيقول: "لأن سوقها في مكانها يكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة التبيان"<sup>٤٥</sup>.

### المقدمة الثامنة: ما يتعلق باسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها

يوضح ابن عاشور في هذه المقدمة أن هذا الغرض لا غنى للمفسر عنه، وله اتصال وثيق بالتفسير، ويعدد أسماء القرآن، ويتحدث عن آيات القرآن وترتيبها، ويبين أن مصدرها التوقيف، ثم يتحدث عن السور، ويبين أحكام الوقف في آخر مقدمته هذه.

### المقدمة التاسعة: في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن مرادة بها

يبين ابن عاشور في هذه المقدمة عظم نسج القرآن، واتقان نظمه، وكون القرآن حجة، وللناس جميعاً، وأنه على أفصح لغة على وجه الأرض فيقول: "وقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية"<sup>٤٦</sup>، ومما يذكره ابن عاشور في هذه المقدمة تفرد القرآن باستعمال اللفظ المشترك في معنائه أو معانيه دفعة، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي ومعناه المجازي معاً.

### المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن

يتناول ابن عاشور في هذه المقدمة خصائص الإعجاز القرآني فيبدأ بكلام يسحر العقول حيث يقول: "لم أر غرضاً تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياذ الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صباية نزرأ، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن"<sup>٤٧</sup>، وينتقل إلى تفصيل وجوه الإعجاز الثلاثة: **الجهة الأولى**: في بلوغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي الفصيح، **والجهة الثانية**: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، **والجهة الثالثة**: ما

<sup>٤٥</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤.

<sup>٤٦</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٩٨.

<sup>٤٧</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٠١.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، ثم يتحدث في هذه المقدمة عن مبتكرات القرآن، ويتحدث ابن عاشور عن خصائص الإعجاز القرآن كالتضمين، والإطناب، والجزالة.

وهكذا أسهم ابن عاشور في مقدماته هذه في رسم الخيوط الواضحة لمنهجية النظرية والتي تغني عن معاد كثير، وكشف عن كثير من المعاني التي يحتاجها قارئ التفسير، وسالك مسلك المفسرين، وأبان كيف ينبغي أن يفسر القرآن الكريم منطلقاً في ذلك من علميته القوية، ونظرته المقاصدية، وخبرته الإصلاحية، والتي أضفت بمجموعها صفة التجديد في تفسيره، وأكسبته الألق المتميز، والنظرة المنفردة.

### تمييز منهجه في التفسير

وأما عن منهجه العملي، والذي تمثل في الاستفادة من القديم، وتوظيفه في طريق التجديد، والإتيان بالجديد المتمثل في إدخال المقاصد بقوة، وإعمال الرأي في دوائره المتاحة، وإظهار الجوانب اللغوية بشكل واضح، ليس لبيان الاختلاف اللغوي ولكن لإظهار الجانب البياني والمكنوز البلاغي الذي تضمنته آيات القرآني وسيأتي بيان ذلك في الفصل القادم عند الحديث عن الأسس اللغوية للتفسير المقاصدي، وبيان منهج ابن عاشور العملي بشكل مبسط فإننا نلخصه في النقاط الآتية:

### ابن عاشور وتفسير السابقين:

وقد سبق بيان ذلك بأن ابن عاشور استفاد من تفاسير السابقين، ولقد تمثل دور ابن عاشور من التفاسير في ثلاث نقاط:

١. دور المتعلم الواعي المستفيد.

٢. دور الناقد المتأمل.

٣. ودور الناقد الفاحص<sup>٤٨</sup>.

<sup>٤٨</sup> انظر: هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٢٣٩.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



ولقد أبان ابن عاشور وجهة نظره حول تفاسير السابقين بقوله: "والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لاحظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل"<sup>٤٩</sup>، وبين منهجه في التجديد بالتفسير بقوله: "...وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون، وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدي من التفاسير في تلك الآيات خاصة، ولست أدعي انفرادي به في نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه تجحك قد سبقك إليه متكلم، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم..."<sup>٥٠</sup>.

إن أهم ثلاثة نماذج أثرت على ابن عاشور كما يظهر من خلال تفسيره هي:

النموذج الأول: المدرسة المشرقية في التفسير ويمثلها الزمخشري والفخر الرازي.

النموذج الثاني: المدرسة المغربية في التفسير ويمثلها ابن عطية والقرطبي.

النموذج الثالث: المدرسة الحديثة في التفسير ويمثلها الألويسي ومحمد عبده<sup>٥١</sup>.

### ج. تعريف المقاصد القرآنية لغة واصطلاحاً

#### تعريف المقاصد لغة:

وترجع كلمة المقاصد في معناها اللغوي إلى الفعل "قَصَدَ" تقول: قَصَدَ، يَقْصُدُ، قَصْدًا. ومنه تنصرف جميع الاشتقاقات، كالقَصْدُ، والقَاصِدُ، والمَقْاصِدُ، والاقْتِصَادُ، وغيرها. جاء في لسان العرب: "القَصْدُ: استقامة الطريق. قَصَدَ يَقْصُدُ قَصْدًا فهو قَاصِدٌ. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. أي على الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة"<sup>٥٢</sup>. وقال ابن فارس: "قَصَدَ: القاف والصاد والذال

<sup>٤٩</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٧.

<sup>٥٠</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٧-٨.

<sup>٥١</sup> انظر: هيا تامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٢٤٢.

<sup>٥٢</sup> ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ١، د.ت) ج ٣، ص ٣٥٣.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء. فالأصل: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصِدًا<sup>٥٣</sup>.

ويقول الراغب الأصفهاني: "قَصَدَ: القَصْدُ استقامة الطريق، يقال قَصَدْتُ قَصْدَهُ أي نَحَوْتُ نَحْوَهُ"<sup>٥٤</sup>.

### تعريف المقاصد القرآنية اصطلاحاً:

يستعمل الأصوليون عادة لفظ المقاصد تحت معنى الهدف والغاية من الأحكام التشريعية، وهناك العديد من الألفاظ المستعملة بمعنى المقاصد ومنها: الحِكم والحكمة، والأسرار، والغايات، والأهداف، والأغراض<sup>٥٥</sup>، وقد جاء هذا اللفظ عند الإمام العز بن عبد السلام في مواضع عدة من كتابه القواعد، كقوله: "معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها"<sup>٥٦</sup>.

وقوله كذلك: "ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير دِقَّةً وِجَلَّةً، وزجر عن كل شر دِقَّةً وِجَلَّةً، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفسد، والشر يعبر به عن جلب المفسد ودرء المصالح"<sup>٥٧</sup>، وقد ذكر هذا المصطلح أيضاً الإمام ابن عاشور في مواضع عدة ومنها ما ذكره في مقدمات التحرير والتنوير. المقدمة الرابعة. فيما يكون عليه غرض المفسر، حيث قال: "فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من

<sup>٥٣</sup> ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج ٥، ص ٩٥.

<sup>٥٤</sup> المرجع السابق، ص ٤٠٤.

<sup>٥٥</sup> انظر: عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ص ٢٠-٢١.

<sup>٥٦</sup> العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، (بيروت: دار المعارف، ط ١، د.ت) ج ١، ص ٧.

<sup>٥٧</sup> المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٠.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



مراد الله تعالى في كتابه بآتمّ بيانٍ يحتمله المعنى، ولا ياباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن<sup>٥٨</sup>.

وكذلك قوله في تفسير سورة الفاتحة: "أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناءً جامعاً لوصفه بجميع المحامد، وتنزيهه عن جميع النقائص، وإثبات تفردّه بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء"<sup>٥٩</sup>، وقد ذكر هذا اللفظ غير واحد من المعاصرين من أمثال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار<sup>٦٠</sup>، والإمام حسن البنا في مقاصد القرآن<sup>٦١</sup>، وغيرهم.

وقد وقف الباحث على تعريف للمقاصد القرآنية لعبد الكريم حامدي، حيث يعرفها بقوله: "مقاصد القرآن هي الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد"<sup>٦٢</sup>، وهي محاولة جميلة استفاد فيها من تعريفات العلماء لمقاصد الشريعة عموماً، وهو تعريف قريب مما قاله الرّيسوني المذكور في تعريف مقاصد الشريعة، والذي سبق إيراده.

وبناءً على ما سبق من بيان لمصطلح مقاصد القرآن يرى الباحث بأنّ مقاصد القرآن هي: الأسرار والحكم والغايات التي نزل القرآن لأجل تحقيقها جلباً للمصالح، ودفعاً للمفاسد، وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه.

**المبحث الثاني: تمييز ابن عاشور المنهجي في عرض المباحث ذات الصلة بالمقاصد**  
عندما نتحدث عن المنهجية إنما نقصد من ذلك الخطة العلمية الموضوعية التي يتبعها مفسر من المفسرين خلال تفسيره، ويعرف منهج الدراسة بأنه: "الخطة المرسومة المحددة للدراسة،

<sup>٥٨</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤١.

<sup>٥٩</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٣.

<sup>٦٠</sup> انظر: رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، (القاهرة: دار المنار، ط ٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م) ج ١، ص ١٠.

<sup>٦١</sup> انظر: حسن البنا، مقاصد القرآن الكريم، تحقيق: أحمد سيف الإسلام، (الكويت: دار الوثيقة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

ص ٢٨.

<sup>٦٢</sup> حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص ٢٩.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



هذه الخطة لها قواعد وأسس ومنطلقات، ولها طرق وأساليب وتطبيقات<sup>٦٣</sup>، وعلى ذلك فمنهجية التفسير عند ابن عاشور معناها: (الخطة العلمية الموضوعية التي من خلالها سار ابن عاشور في إيضاح آيات القرآن الكريم، والتي تقوم على الأسس والقواعد العلمية وتتجلى بمجموعة الأساليب والتطبيقات التي سلكها ابن عاشور في تفسيره، والتي منها اللغة والمأثور، والرأي والإعجاز، والمناسبات، وأبرزها المقاصد)، وفيما يأتي بيان أهم الأوجه التي اهتم ابن عاشور بإبرازها في تفسيره:

**الإحاطة بأغراض السورة**، حيث يبدأ بذكر أغراض السورة ومقاصدها الرئيسية، ثم يدخل إلى تفسيرها، فعلى سبيل المثال: عندما ابتدأ تفسير سورة الأنفال بدأها بقوله: "أغراض هذه السورة ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها، والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره، والأمر بطاعة الله ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها، وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل، وذكر الخروج إلى غزوة بدر، وخوفهم من قوة عددهم، وما لقوا فيها من نصر وتأييد من الله ولطفه بهم، وامتنان الله عليهم بأن جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر والهوابة أن اتقوا بالثبات للعدو والصبر، والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء، والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع، والأمر بأن يكون قصد النصر للدين نصب أعينهم، ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر، وذكر مواقع الجيشين، وصفات ما جرى من القتال...."<sup>٦٤</sup>، إلى غير ذلك من الأمثلة.

**أسماء السورة، وترتيبها، ومكية أم مدنية**: ويهتم ابن عاشور بذلك في بداية تفسير كل سورة فعلى سبيل المثال: في بداية سورة الأعراف يقول: "هذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه السورة، من عهد النبي صلى الله عليه وسلم..."<sup>٦٥</sup>، وعند سورة التوبة يقول: "ولهذه السورة أسماء أخرى، وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين، فروي عن ابن عمر، عن ابن

<sup>٦٣</sup> صلاح عبدالفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، (دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩ -

٢٠٠٨م) ص ١٦.

<sup>٦٤</sup> انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٩، ص ٢٤٩.

<sup>٦٥</sup> المرجع السابق، ج ٨، ص ٥.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



عبّاس: كُنّا ندعوها- أي سورة براءة - المقشقة...<sup>٦٦</sup>، وينحو على هذا النحو في بيان تريب السورة، وهل هي مكية أو مدنية.

الاهتمام بوجوه الإعجاز، ودلائل البيان القرآني، والنظم البلاغي، ووجوه اللغة، وأساليب الاستعمال، والتي لا يتسع المقام للتمثيل لها، ولكنها واضحة في استعمالاتها المتكررة بين ثنايا تفسيره، وقد جمع كل ما هو نافع ومفيد، ومما قيل عنه في الجانب الجمالي: "وقد تميز الشيخ مع الآيات الكريمة معاملة تميزت بالدقة والإنصاف في إعطاء كل آية حقها من البيان والشرح والتوضيح بقدر جهده وطاقته وما أوتي من علم، والتزم باتباع التناسق والتوافق في الشرح والتفسير"<sup>٦٧</sup>.

### منهجه في التفسير بالمأثور:

والتفسير بالمأثور يشمل تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة النبوية وتفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم<sup>٦٨</sup>، ففي تفسير القرآن بالقرآن يلجأ ابن عاشور إلى مسلك الجمع بين الآيات المختلفة على سبيل تفسير الآية بالآية الأخرى مساهمة في حل أو إشكالاتها أو بيان معانيها فمثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، قال في معرض تفسيره لهذه الآية: "يتوفون مبني للمجهول، وهو من توفاه الله أو توفاه الموت ... وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية وجاء الإسلام فقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، فظهر الفاعل المجهول<sup>٦٩</sup>، والأمثلة على هذا كثيرة.

<sup>٦٦</sup> المرجع السابق، ج ١٠، ص ٩٥.

<sup>٦٧</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٣٣٢-٣٣٣.

<sup>٦٨</sup> انظر: خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)

ص ١١١.

<sup>٦٩</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٤١.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وأما في تفسير القرآن بالسنة فيورد ابن عاشور الأحاديث الصحيحة وأكثر ما يورد من صحيح البخاري ومسلم، فمثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، قال: "وفي الحديث: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول»<sup>٧٠</sup>، فإن البداءة بمن يعول ضرب من الإنفاق؛ لأنه إن تركهم في خصاصة احتاجوا إلى الأخذ من أموال الفقراء، وفي الحديث: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس»<sup>٧١</sup>، أي يمدون أكفهم للسؤال<sup>٧٢</sup>، وقد أراد ابن عاشور من إيراد هذين الحديثين تفسير معنى العفو الوارد في الآية، وأما تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين فقد عني ابن عاشور عناية كبيرة بما ورد عنهم في تفسير القرآن، فمن ذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، قال ابن عاشور: "وقد اختلفت علماء الأمة في ماهية الإيمان... قول جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ذلك أنهم لكمال حالهم ومحيئهم في فاتحة انبثاق أنوار الدين لم يكونوا يفرضون في الإيمان أحوالاً تقصر في الامتثال، ونسب ذلك إلى مالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج والنخعي والحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وابن المبارك والبخاري ونسب لابن مسعود وحذيفة وبه قال ابن حزم من الظاهرية وتمسك به أهل الحديث لأخذهم بظاهر ألفاظ الأحاديث..<sup>٧٣</sup>، ولا يتوقف ابن عاشور على الاستشهاد بأقوال الصحابة بل وينقدها، ويأخذ منها ويرد ما يباه علمه ويرفضه عقله من الأقوال المتضاربة والمتناقضة<sup>٧٤</sup>، وأما علوم القرآن والتي تتضمن أسباب النزول والقراءات والقصص وفضائل

<sup>٧٠</sup> أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، حديث رقم: ٥٠٤١.

<sup>٧١</sup> أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفوا الناس، حديث رقم: ٢٥٩١.

<sup>٧٢</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٣٥١.

<sup>٧٣</sup> المرجع السابق، ج ١، ٢٦٦-٢٦٧.

<sup>٧٤</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٣٥٩.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



السور فلها مكان وأهمية في تفسيره وقد كانت محل اهتمام وعناية، وكما سبق عند ذكر المقدمات العشر، وشغلت حيزاً من تفسيره.

### العربية في تفسير التحرير والتنوير:

شغلت العربية بكل تقسيماتها من اللغة والشعر والبلاغة والمشارك اللفظي حيزاً كبيراً من التحرير والتنوير، فقد أولاهما ابن عاشور عنايته الفائقة، واهتم بها أيما اهتمام، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ثروته العلمية في فنون اللغة، ومكنته القوية من أساليب استعمالها، "وتعتبر اللغة في تفسير التحرير والتنوير من أهم وأبرز الأسس التي قام عليها، واستوى على سوقه، بل هي العصب الذي يشد أركان هذا التفسير ويقويه ويميزه ويتميز به"<sup>٧٥</sup>، بل إن ابن عاشور ذكر اللغة على سبيل الربط بينها وبين المقاصد الكلامية فقال: "أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم... إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة"<sup>٧٦</sup>. ويبين ابن عاشور المقصود من قواعد العربية فيذكر ذلك في جملة وافية كافية، فيقول: "ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم، وأشعارهم، وتراكيب بلغائهم"<sup>٧٧</sup>.

وبناء على ذلك قدم ابن عاشور تعليلاً جميلاً عن سر تقديم اللغة العربية عن سائر اللغات، وسر استحقاقها الجدارة لأن تكون لغة القرآن حيث يعدد أسرار ذلك التقديم قائلاً: "...أن تلك اللغة أوفر اللغات مادةً، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجةً، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً"<sup>٧٨</sup>.

<sup>٧٥</sup> المرجع السابق، ص ٣٨٥-٣٨٦.

<sup>٧٦</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٨.

<sup>٧٧</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٨.

<sup>٧٨</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٩٨.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وإن المتتبع لمدى تطبيق ابن عاشور لكلامه النظري يجد أنه يحقق ويدقق الكثير من القضايا اللغوية، والتي أهمها:

**التحقيقات الدلالية** ومن ذلك تحقيقاته المتعلقة بما يرمز إليه تطويل باء البسمة في رسمها، حيث يقول: "والذي يظهر لي أن الصحابة لما كتبوا المصحف طولوها في سورة النمل للإشارة إلى أنها مبدأ كتاب سليمان فهي من المحكي، فلما جعلوها علامة على فواتح السور نقلوها برسمها، وتطويل الباء فيها صالح لاتخاذ قدوة في ابتداء الغرض الجديد من الكلام بحرف غليظ أو ملون"<sup>٧٩</sup>، ومنها كذلك: **قضية النحت**: وهي قضية قد سبقه إليها القرطبي في مسائل البسمة في تفسيره، ولكنه ساهم في إحيائها وعرضها بأسلوب جميل يقول القرطبي عن النحت: "العرب تَنَحَّت من كلمتين كلمةً واحدةً وهو جنسٌ من الاختصار وذلك (رجل عَشَمِيٍّ) منسوبٌ إلى اسمين وأنشد الخليل: -من الوافر-

أقول لها ودمع العين جَارٍ  
ألم تُحزَنك حَيْعَلَةُ المِنَادِي

من قوله: (حَيَّ عَلَي) وهذا مذهبتنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت"<sup>٨٠</sup>، ونجد ابن عاشور يتحدث عن هذه القضية أيضاً فيقول: "البسمة اسم لكلمة باسم الله، صيغ هذا الاسم على مادّة مؤلّفة من حروف الكلمتين باسم والله على طريقة تسمى التَّحْت، وهو صوغ فعللٍ مُضَيٍّ على زنة فَعَلَل..."<sup>٨١</sup>، وابن عاشور وإن كان لم يأت بجديد في القضية إلا أنه وضعنا أمام ما التزم به من إيراد ما أغفله المفسرون، وإحياء المآثور، وسوق الفرائد والغرائب.

### المشترك اللفظي:

وهو من المباحث التجديدية التي تناولها ابن عاشور في تفسيره، وقد عرفه القرطبي بقوله: "اللفظ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك

<sup>٧٩</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٥١.

<sup>٨٠</sup> انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨ م) ج ١، ص ٣٧١-٣٧٢.

<sup>٨١</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٣٧.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



اللغة...<sup>٨٢</sup>، وقد اعتنى ابن عاشور بتقرير هذه القضية وعدها من أساليب القرآن التي تفرّد بها، حيث يقول: "ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإدارة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والتقدير عليه"<sup>٨٣</sup>. وبالنظر لاختلاف العلماء حول هذه المسألة فقد أقر ابن عاشور بوجودها، ونبه عليها في أكثر من موضع في تفسيره، وذهب إلى حمل المشترك اللفظي على معنياه الحقيقي والمجازي.. "فمقصد ابن عاشور الذي يرمي إليه من وراء إثارة هذه القضية إصابة هدفين بسهم واحد أو ذات شقين: شق شرعي فقهي، وشق بياني إعجازي"<sup>٨٤</sup>.

ومن المسائل التي أوردها ابن عاشور الشعر مستدلاً به على مذاهب العرب في كلامهم، والنحو والإعراب وقد كان ساهم ابن عاشور في إعراب الآيات القرآنية إلى حد الإطالة، وكذلك البلاغة وهي من أهم المباحث التي عني بإبرازها واستخراجها ومنها الإيجاز والمجاز.

### الإعجاز في التحرير والتنوير

استطاع ابن عاشور أن يقف في ميدان إعجاز القرآن الكريم مواقف لم يسبقه إليها غيره من المفسرين، وإن كان هناك من سبقه في الحديث عن الإعجاز من المتقدمين إلا أن التفاوت يبدو واضحاً في حجم الاستعمال والتقرير، والناظر في التحرير والتنوير يجد أن ابن عاشور قد بذل جهداً لا يستهان به في هذا الميدان، ولقد ظهر هذا العطاء من خلال فصاحة ألفاظه، وقوة تراكيبه، ودقة معانيه.

<sup>٨٢</sup> جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٢٩٢.

<sup>٨٣</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٢٣.

<sup>٨٤</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٣٩٣-٣٩٤.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



يعرف السيوطي الإعجاز بقوله: "اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية"<sup>٨٥</sup>، ويصف القاضي عياض وجوه الإعجاز بقوله: "اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

**الوجه الأول:** حسن تأليفه والتثام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته لخارقة عادة العرب.  
**الوجه الثاني:** من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها.

**الوجه الثالث:** من الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمعنيات.

**الوجه الرابع:** ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة"<sup>٨٦</sup>.  
ولا يخفى أن ابن عاشور قد تأثر بهذين الإمامين أيما تأثر -الجرجاني، والقاضي عياض- فقد قام بشرح دلائل الإعجاز وهو أهم أثر بلاغي تقريرى تركه ابن عاشور، والكتاب موجود في مكتبة ابن عاشور تحت عنوان شرح دلائل الإعجاز"<sup>٨٧</sup>.  
كما أن ابن عاشور في مقدمته العاشرة للتحريم والتنوير قد بسط القول عن الإعجاز، وأبانه بقدر أوفى من الشرح والإيضاح، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في المقدمة العاشرة.

ومن أساليب الإعجاز عند ابن عاشور ما أسماه **بالتفنن**: وهو ما فسره بقوله: "...ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنباً لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من

<sup>٨٥</sup> عبد الرحمن السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، د.ت) ج ٢، ص ٣١١.

<sup>٨٦</sup> القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، **الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**، ص ٢٥٨.

<sup>٨٧</sup> هيا ثامر العلي، **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحريم والتنوير**، ص ٤١٩.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير...<sup>٨٨</sup>.

وكذلك فن الالتفات، وقد سار فيه ابن عاشور على نهج الزمخشري<sup>٨٩</sup>، والزركشي<sup>٩٠</sup>، وقد أبانه بقوله: "...من وجوه الإعجاز: نرى من أفانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرد معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال"<sup>٩١</sup>.

وعلى ذلك يكون ابن عاشور قد بسط وأفاد وأتقن وأجاد في حديثه عن الإعجاز وأساليبه وطرائفه، خادماً بذلك المقاصد القرآنية، وقد جدد في تفسيره مقارنة بغيره من المفسرين، حيث التزم ببيان وجوه الإعجاز بوجوهه المختلفة، الأمر الذي جعل لتفسيره قالباً متفرداً، وأسلوباً رائعاً.

### الرأي في التحرير والتنوير:

يعد التفسير بالرأي من الركائز الأساسية التي قام عليها تفسير التحرير والتنوير، ويعرف التفسير بالرأي بأنه: "هو ما يقابل التفسير النقلي، وهو يعتمد على الفهم العميق والمركز لمعاني الألفاظ القرآنية... ويقوم على الاجتهاد في فهم النصوص القرآنية، وإدراك مقاصدها

<sup>٨٨</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ١١٦.

<sup>٨٩</sup> انظر: مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، (مصر: دار المعارف، ط ٢، د.ت) ص ٢٣٢.

<sup>٩٠</sup> حيث يعرفه الزركشي بقوله: "وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرازا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لحاظه من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه" (انظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط ١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ج ٣، ص ٣١٤).

<sup>٩١</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٠٩.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



ومراميتها من مدلولها ودلالاتها...<sup>٩٢</sup>، وابن عاشور حين يعرض لمسألة التفسير العقلي فإنه يعرض لها بروح الفقيه المجتهد، الذي يرى لزماً على المجتهد أن يكد الذهن، والدأب للتوصل إلى حل لقضية أو حسم لنزاع<sup>٩٣</sup>.

ولقد تأثر ابن عاشور بالمدرسة العقلية في التفسير وأخذ عن رجالها الكثير كما يقرر ذلك الرومي في كتابه منهج المدرسة العقلية في التفسير حيث يقول: "وقد كان رجال التفسير الذين أخذ عنهم ابن عاشور في معظمهم ينتمون إلى المدرسة العقلية في التفسير بدءاً بالرازي فالزخشري في القديم، وانتهاءً بالأستاذ الإمام في العصر الحديث"<sup>٩٤</sup>.

ويرسم لنا ابن عاشور مفهومه حول الرأي، وحدود الرأي وضوابطه عنده فيقول: "إن المراد بالرأي هو القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريدها، وما لا بد منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول، فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ في تصوره بلا علم، لأنه لم يكن مضمون الصواب كقول المثل رمية من غير رام"<sup>٩٥</sup>.

وعلى ذلك فإن الرأي عند ابن عاشور يعتمد على الأسس الآتية:

**الأساس الأول:** إن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة لها، حيث يؤكد على هذا المعنى بقوله: "وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها... والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة... قد جعل الله القرآن كتاب الأمة كلها وفيه هديها، ودعاهم إلى تدبره وبذل الجهد في استخراج معانيه في غير ما آية

<sup>٩٢</sup> انظر: خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، ص ١٦٧.

<sup>٩٣</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومهجه في تفسيره التحرير والتنوير، ص ٤٣١.

<sup>٩٤</sup> فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية في التفسير، (الرياض: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٤م) ج ١، ص ٦٨.

<sup>٩٥</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٠.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوَّ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن<sup>٩٦</sup>.

**الأساس الثاني:** موقف ابن عاشور من الأقوال المختلفة في التفسير، ويتمثل موقفه هنا في عرض الأقوال المختلفة في تفسير الآية الواحدة ثم يحاول التوفيق بينها إن أمكن الجمع بين هذه الأقوال، فإن لم يمكن الجمع قارن بين الآراء ورجح فيها ما رآه راجحاً بالدليل<sup>٩٧</sup>.

**الأساس الثالث:** القواعد التي يستخدمها ابن عاشور في الترجيح والتضعيف لما يتعرض له من أقوال، وذلك بالسواء بين اللغة والأثر والرأي، ولا يتسع المقام لإيراد الشواهد على كلها. إن من أبرز المحاسن التي تضاف لابن عاشور في مجال التفسير بالرأي أن الرأي الصادر عنه لم يصدر نتيجة للتعصب لمذهب ديني أو سياسي جاء ليفرضه علينا، أو أن يتخذ من القرآن مجالاً وقاعدة يدافع عنها كما فعل أصحاب المذاهب الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة إلى غير ذلك، بالإضافة إلى كونه من أكثر المفسرين التزاماً بالخط التفسيري العقلي المحمود، مراعيًا للمأثور ودقة النقل، والتمحيص والاختيار<sup>٩٨</sup>.

ولقد أسهم ابن عاشور بشكل واضح في خدمة المقاصد القرآنية من خلال التزامه بهذا الخط من التفسير بالرأي، فقد قدم أنموذجاً رائعاً من الرأي المحمود الملتزم بالمأثور واللغة والخالي من الشطط، والتفريط.

### المبحث الثالث: التمييز المنهجي في عرض المقاصد الأصلية لدى ابن عاشور.

استكمالاً لمنهجية ابن عاشور في تفسيره نعرض في هذا المبحث لمنهجه في إيراد المقاصد القرآنية على غرار ما قدمناه سلفاً من التمييز في الحياة العلمية والاجتماعية، والمباحث ذات

<sup>٩٦</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٩٣-٩٤.

<sup>٩٧</sup> هيا ثامر العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحري والتنوير، ص ٤٣٧.

<sup>٩٨</sup> المرجع السابق، ص ٤٤٤.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الصلة بالمقاصد القرآنية، وقد أفردت هذا المبحث بالذكر لما تميز به ابن عاشور من التعامل المقاصد على كافة المستويات النظرية والعملية، وسوف نعرض لحجم تعامله مع المقاصد مع بيان ما تميز به فيما يأتي:

### أ. المستوى التنظيري [مدى تعاطي ابن عاشور مع المقاصد القرآنية]

ينظر ابن عاشور لمقاصد القرآن بنظرة ثاقبة، وفكر متأمل، فقد شمل تنظيره للمقاصد تقسيمات المقاصد العامة والخاصة والجزئية، وهو بذلك يضعنا أمام رؤية جديدة في التعامل مع المقاصد القرآنية يمكن وصفها بالشمول والعموم لمناحي المقاصد المختلفة وفيما يأتي بيان لرؤيته تلك:

#### المقاصد القرآنية العامة:

يرى ابن عاشور أن المقصد الأعلى من نزول القرآن هو تحقيق الصلاح على المستوى الفردي، والجماعي، والعمراني، حيث يقول: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية"<sup>٩٩</sup>، ويحلل ابن عاشور نظريته هذه حول المقاصد العامة فيعمد إلى تفصيلها وتحليلها بأبعاد أكثر دقة ووضوح، حيث يرى أن لكل مقصد من المقاصد العامة مرتكزات وأطر يتحدد من خلالها:

- فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.
- وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف

<sup>٩٩</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٨.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموآبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

- وأما **الصلاح العمراني** فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع.

ثم يبين أن القرآن الكريم قد حوى أمهات المقاصد التي تعبدنا الله بها، والتي تمثل قلباً هاماً لحفظ الدين، حيث يقول: "فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه فقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]"<sup>١٠٠</sup>.

ويعبر ابن عاشور عن هذا المقصد في موضع آخر بأنه المقصد الأعظم حيث يقول: "المقصد العام من التشريع هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه عقله وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"<sup>١٠١</sup>.

وبهذا يتضح لنا أن المقاصد القرآنية العامة عند ابن عاشور تتمثل بالأغراض الكلية الحاصلة من مجموع ما جاء في القرآن من أحكام، وتشمل: تحقيق الصلاح الفردي، والصلاح الاجتماعي والصلاح العالمي.

### المقاصد القرآنية الخاصة:

والتي سماها ابن عاشور بالمقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبينها، وقد قسمها إلى ثمانية أقسام فيما يأتي بيانها:

<sup>١٠٠</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩.

<sup>١٠١</sup> ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ١٢٠.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



**المقصد الأول:** إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

**المقصد الثاني:** تهذيب الأخلاق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفسرت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»<sup>١٠٢</sup> وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغا أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم مكارم حسن الأخلاق»<sup>١٠٣</sup>.

**المقصد الثالث:** التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كلياً في الغالب، وجزئياً في المهم، فقوله: ﴿تَنبِيئًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس، قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية.

**المقصد الرابع:** سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا

<sup>١٠٢</sup> رواه البخاري في الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسن خلقه، حديث رقم: ٣٠٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده، باب حديث السيدة عائشة، حديث رقم: ٢٥٣٣٨.

<sup>١٠٣</sup> رواه البيهقي في سننه، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، حديث رقم: ٢٠٥٧١، ورواه الشهاب في مسنده، باب إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، حديث رقم: ١١٦٥. ولفظ الحديث عند البيهقي والشهاب: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ولم أعر عن اللفظ الذي أتى به ابن عاشور لأتمم مكارم حسن الأخلاق، بزيادة حسن.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴿[آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فِتْنَشُلُوا وَتَدْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

**المقصد الخامس:** القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وللتحذير من مساويهم قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وفي خلالها تعليم.

**المقصد السادس:** التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع، وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول، وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم.

**المقصد السابع:** المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك الحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

**المقصد الثامن:** الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدي لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه<sup>١٠٤</sup>.

<sup>١٠٤</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٠-٤١.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وبالنظر إلى تقسيم ابن عاشور للمقاصد الخاصة يتضح لنا أنه استخدم بعض المقاصد الجزئية كمقاصد خاصة مثل المواعظ والإنذار، والقصص وأخبار الأمم السابقة، ولم يفصل في المقصد التشريعي الذي ينبغي أن يشمل المقصد الاجتماعي والمقصد المالي، وإصلاح النفس، وبناءً على ذلك يمكن تقسيم المقاصد الخاصة للقرآن الكريم لدى ابن عاشور على النحو الآتي:

**المقصد الأول:** مقصد الإصلاح العقدي.

**المقصد الثاني:** مقصد الإصلاح الأخلاقي.

**المقصد الثالث:** مقصد إصلاح النفس.

**المقصد الرابع:** مقصد الإصلاح العائلي.

**المقصد الخامس:** مقصد الإصلاح المالي.

**المقصد السادس:** مقصد الإصلاح العقابي.

**المقصد السابع:** مقصد الإصلاح الحربي.

**المقصد الثامن:** مقصد الإصلاح السياسي.

### المقاصد القرآنية الجزئية:

وبهذا يكون بيان ما يرمي إليه المفسر من الوسائل والمعاني الذي يتضمنها المعنى ولا يأباه اللفظ، وهو ما أشار إليه ابن عاشور بقوله: "فعرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بآتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعاً مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاح وعادات"<sup>١٠٥</sup>.

<sup>١٠٥</sup> المرجع السابق، ج ١، ٤١-٤٢.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وتتمثل المقاصد القرآنية الجزئية كذلك في آحاد أحكام القرآن<sup>١٠٦</sup> كالحكمة من تشريع الوضوء، والحكمة من تشريع التيمم، والحكمة من الإنفاق، والحكمة من كتابة الدين، والحكمة من معاشره النساء، فمثلاً الحكمة من تشريع الوضوء بينه ابن عاشور عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، حيث يقول: "إذ حكمة الوضوء وهي النقاء والوضوء، والتنظيف والتأهب لمناجاة الله تعالى، تقتضي أن يبالي في غسل ما هو أشدّ تعرّضاً للوسخ... وتكمل النعم الموجودة قبل الإسلام بنعمة الإسلام، أو يكمل نعمة الإسلام بزيادة أحكامه الرّاجعة إلى التركية والتطهير مع التيسير في أحوال كثيرة، فالإتمام إمّا بزيادة أنواع من النعم لم تكن، وإمّا بتكثير فروع النوع من النعم"<sup>١٠٧</sup>.

### أ. المستوى التطبيقي نماذج لإيراد المقاصد في تفسير ابن عاشور

بما أن المقاصد القرآنية الخاصة لدى ابن عاشور قد شكلت مساحة كبيرة من التنظير والتفصيل، فسيتم تناولها بالتمثيل والبيان، فالمقاصد العامة والجزئية لم تشكل ذلك الزخم الذي شكلته المقاصد الخاصة، وقد سبق إيضاحها بما يعني عن التمثيل لها، وتتلخص المقاصد الخاصة مع التمثيل لها فيما يأتي:

#### مقصد الإصلاح العقدي:

ويمثل ابن عاشور لهذا المقصد في غير ما موضع، ولعل أبرزها موضعين يبين فيهما بجلاء هذا المقصد: **المثال الأول:** عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، حيث يبين المقصد من الدين هو إصلاح العقيدة، وأن أهم مظاهر الدين الإصلاح العقدي فيقول: "إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم يكون عقيدته مبنية على

<sup>١٠٦</sup> انظر: عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص ٢٩.

<sup>١٠٧</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦، ص ١٣٠-١٣٢.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الخضوع لواحدٍ عظيم، وعلى الاعتراف باتّصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختيارياً، ثم لتصير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلّق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتّحد مبدأ التخلّق فيهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتداء به الإسلام، وأكثر ما تعرّض له؛ وذلك لأنّ إصلاح الفكرة هو مبدأ كلّ إصلاح؛ ولأنّه لا يرجى صح لقوم تلطّخت عقولهم بالعقائد الضالّة، وخسّت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفاً من لا شيء، وطمعاً في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي؛ لأنّ المرء إنسان بروحه لا بجسمه، ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزّة النفس، وأصلة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل<sup>١٠٨</sup>.

**المثال الثاني:** ويؤكد ابن عاشور على هذا المقصد النبيل، وذلك عندما يحدثنا عن الإخبار عن ثبات النبي ﷺ على الدين؛ لتقرير وتأكيد هذا المقصد في النفوس، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، حيث يقول: "إذ المقصود من النظر المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوجدانية، فإن جحودهم إيّاها هو الذي أقدمهم على تكذيب الرسول ﷺ في قوله: إن الله بعثه بإثباتها وأبطل الإشراك، فلما أمرهم بالنظر المؤدي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهية أعقبه بأن يخبرهم بأنهم إن استمروا على الشك فيما جاء به الرسول ﷺ، فإن الرسول ﷺ ثابت على ما جاء به وأن دلائل صحة دينه بينة للناظرين"<sup>١٠٩</sup>.

### مقصد الإصلاح الأخلاقي:

<sup>١٠٨</sup> المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٤.

<sup>١٠٩</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٣٠٠.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



ويشمل هذا المقصد دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق، وجميل الصفات، ويبين ابن عاشور أهمية هذا المقصد في مواضع كثيرة في تفسيره، ومن تلك المواضع ما يأتي:

**المثال الأول:** وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، حيث يرى أن هذه الآية قد جمعت مكارم الأخلاق فيقول: "وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضاً، فإن الأمر يأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق" <sup>١١٠</sup>.

**المثال الثاني:** وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨]، وبهذا المثال يبين أهمية مكارم الأخلاق في اختيار الخليل والصاحب حيث يقول: "وهذا عندي هو محمل قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً» <sup>١١١</sup> فإن مقام النبوة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس فلا يليق به إلا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة ولهذا قالت عائشة: «كان خُلِقَ القرآن» <sup>١١٢</sup>، وعلمنا بهذا أن أبا بكر أفضل الأمة مكارم أخلاق بعد النبي ﷺ؛ لأن النبي جعله المخير لخلته لو كان متخذاً خليلاً غير الله" <sup>١١٣</sup>.

<sup>١١٠</sup> المرجع السابق، ج ٩، ٢٢٩.

<sup>١١١</sup> رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»، حديث رقم: ٣٤٥٦، ورواه

مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم: ٦٣٢٢.

<sup>١١٢</sup> رواه البخاري، الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسن خلقه، حديث رقم: ٣٠٨.

<sup>١١٣</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ١٥.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



**المثال الثالث:** وفيه يبين أهمية مكارم الأخلاق بناءً على ما جاء في سورة الحجرات، حيث يرى أنها قد اشتملت على مكارم الأخلاق ومحاسنها، ففي أثناء حديثه عن أغراض السورة نقل القول بأنها: "هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق، والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام، قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجرات: ١، ٢، ٦، ١١، ١٢] وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة"<sup>١١٤</sup>.

### مقصد إصلاح النفس:

ويركز ابن عاشور في هذا المقصد على بيان حرص القرآن على إصلاح النفس وكبح جماحها من الشهوات والشبهات، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

**المثال الأول:** وذلك عند قول الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٨-١٩]، حيث يقول: "وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس وهو شيئان:

**أولهما:** راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.

**وثانيهما:** المال الذي تشح به النفوس غالباً، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس، وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال، فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله تعالى، وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل، وفي جعلهم

<sup>١١٤</sup> المرجع السابق، ج ٢٦، ص ٢١٤.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته، وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج<sup>١١٥</sup>.

**المثال الثاني:** ما جاء عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا غَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، حيث يقول: "أما قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، فذلك إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات... وتخصيص: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس، إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام، ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحى إليهم الأمر بذلك كما هو بين<sup>١١٦</sup>.

### مقصد الإصلاح العائلي:

ويتمثل في حرص القرآن على حفظ النوع الإنساني من الاندثار والحث على التماسك والترابط الأسري، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

**المثال الأول:** وذلك عند قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ صَدَقْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، حيث يلخص ابن عاشور مقاصد هذه الآية بقوله: "... فأوماً إلى تنهية نوع من المحرمات، وهو المحرمات الراجعة تحريمها إلى إصلاح الحالة الاجتماعية للأمة، بإصلاح الاعتقاد، وحفظ نظام العائلة والانكفاف عن المفسد، وحفظ النوع بترك التقاتل<sup>١١٧</sup>.

<sup>١١٥</sup> المرجع السابق، ج ٢٦، ص ٣٤٦.

<sup>١١٦</sup> المرجع السابق، ج ١٧، ص ١١٠-١١١.

<sup>١١٧</sup> المرجع السابق، ج ٨، ص ١٦٢.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



**المثال الثاني:** وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، حيث يوضح أهمية هذا المقصد فيقول: "وخصَّ الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مهمماً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقه أو بفضله، وهو إيتاء ذِي الْقُرْبَىٰ فقد تقرّر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعدِ واتّقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه، ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليتهم، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقال: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النَّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧]، ولأجل ذلك صرفوا معظم إحصائهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذكر بين الناس، ولم يزل هذا الخلق متفشياً في الناس حتى في الإسلام إلى الآن ولا يكثرثون بالأقربين... فخصَّ الله بالذكر من بين جنس العدل وجنس الإحسان إيتاء المال إلى ذِي الْقُرْبَىٰ تنبيهاً للمؤمنين يومئذٍ بأن القريب أحقّ بالإنصاف من غيره، وأحقّ بالإحسان من غيره لأنه محل الغفلة ولأن مصلحته أجدى من مصلحة أنواع كثيرة، وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً بنفوس الناس إلى أحكام الموارث التي شرعت فيما بعد<sup>١١٨</sup>.

### مقصد الإصلاح المالي

ويشمل هذا المقصد كل ما جاء في الأمر بالحفاظ على المال وصرفه في مصارفه المعترية، واجتناب التبذير والإسراف، والحث على الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى ومن ذلك ما يأتي من الأمثلة:

**المثال الأول:** حرص القرآن على الحث على عدم إعطاء الأموال لليتامى إذا صدر منهم ما يدل على عدم عقلانيتهم، أو عدم اكتمالها أو ما يسمى بالحجر على اليتيم، لأن المقصود من ذلك هو حفظ المال، وقد جاء هذا المثال في قول الله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا

<sup>١١٨</sup> المرجع السابق، ج ١٤، ص ٢٥٦-٢٥٧.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



بَلَّغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿[النساء: ٦]﴾، يقول ابن عاشور: "ابتلوا اليتامى حتى وقت إن بلغوا النكاح فادفعوا إليهم أموالهم وما بعد ذلك ينتهي عنده الابتلاء، وحيث علم أنّ الابتلاء لأجل تسليم المال فقد تقرّر أنّ مفهوم الغاية مراد منه لازمه وأثره، وهو تسليم الأموال، والابتلاء هنا: هو اختبار تصرف اليتيم في المال باتفاق العلماء، وينبغي أن يكون ذلك غير شرط إذ مقصد الشريعة هنا حفظ المال" <sup>١١٩</sup>.

**المثال الثاني:** ما جاء من الحث على الإيفاء بالكيل والميزان، وكيف يحفظ بذلك المال ويصلح حال البائع والمشتري، وهو ما يسمى بمقصد الإصلاح المالي، وذلك عند قول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، يقول ابن عاشور عند هذه الآية: "... فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنة الإضاعة، لأنّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو الميزان، ولأنّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون قد يتحمّل التطفيف، فأوصي البائع بإيفاء الكيل والميزان، وهذا الأمر يدلّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشدّ من التطفيف، فإنّ التطفيف إن هو إلاّ مخالسة قدر يسير من المبيع، وهو الذي لا يظهر حين التقدير فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أولى بالحفظ، وتجنّب الاعتداء عليه" <sup>١٢٠</sup>.

### مقصد الإصلاح العقابي

ويشمل كل ما يرد من العقوبات التي شرعها القرآن زجراً للنفس إذا ارتكبت الخطأ، ووقعت في الزلل، أو جراء المخالفة لأمر الله ورسوله ﷺ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

<sup>١١٩</sup> المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٣٨.

<sup>١٢٠</sup> المرجع السابق، ج ٨، ص ١٦٦.



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



**المثال الأول:** ما ورد في قصة موسى مع قومه عندما طلبوا منه تغيير الأطعمة بنوع أردأ من ما هو بين أيديهم وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، يقول ابن عاشور مبيناً المقصد العقابي: "فالذي عندي في تفسير الآية أنها انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوى اختيارهم في شهواتهم والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحاً، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ فعبروا عن تناول المنّ والسُّلوى بالصبر المستلزم الكراهية، والمقصد من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم، وليس شيء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف، ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى ترتب المسببات على أسبابها، وذلك من نواميس نظام العالم، وإنما الذي يدل على كون المجزي عليه معصية هو العقاب الأخرى"<sup>١١١</sup>.

**المثال الثاني:** ما أورده ابن عاشور عن الجزاء الحاصل للكافرين بآيات الله والمنكرين للبعث، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أِنَّا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، حيث يقول: "استئناف بياني لأن العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركب هذه الهيئة من تلك الصورة المفضعة، فالجواب بأن ذلك بسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد... فذكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم، وذكر سببان:

**أحدهما:** الكفر بالآيات، ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلاً وجمعاً تناسبها العقوبة التي في قوله: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ٩٧].

<sup>١١١</sup> المرجع السابق، ج ١، ٥٢١.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



وثانيهما: إنكارهم البعث بقولهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَلَا نَحْنُ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، المناسب له أن يُعاقبوا عقاباً يناسب ما أنكروه من تجدد الحياة بعد المصير رفاتاً، فإن رفات الإحراق أشد اضمحلالاً من رفات العظام في التراب<sup>١٢٢</sup>.

### مقصد الإصلاح الحربي

ويشمل كل ما يجب على المسلم فعله والالتزام به من الطاعة لأمر الجيوش، ومن تنظيم الجيش وترتيبه والعناية به، وأمثله كالآتي:

**المثال الأول:** ما أورده ابن عاشور عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]، حيث يقول: "وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهرٌ وصفه بكثير؛ لأنّ الذكر بالقلب يوصف بالقوة، والمقصود تذكّر أنّه الناصر، وهذان أمران أمروا بهما وهما يَحْتَصَانِ المجاهد في نفسه، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فهما لإصلاح الأفراد، ثم أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع، فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول ﷺ من آراء الحرب، كقوله ﷺ للرمّة يوم أحد: «لا تبرحوا من مكانكم ولو تَخَطَّفَنَا الطيرُ»<sup>١٢٣</sup>، وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته، لقوله: «ومن أطاع أميري فقد أطاعني»<sup>١٢٤</sup> وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول ﷺ لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه، وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي

<sup>١٢٢</sup> المرجع السابق، ج ١٥، ص ٢١٨-٢١٩.

<sup>١٢٣</sup> رواه ابن حبان في صحيحه، باب الخروج وكيفية الجهاد، حديث رقم: ٤٧٣٨.

<sup>١٢٤</sup> رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، حديث رقم: ٦٧١٨، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم: ٤٨٥٤.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضاً، حتى يصدرُوا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نھوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي<sup>١٢٥</sup>.

**المثال الثاني:** ما جاء من الأمر بالغلظة في قتال الكفار، وما يترتب على ذلك من مقاصد ودلالات في التعامل أثناء الحروب، وذلك عند قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، يقول ابن عاشور: "والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين، ومعنى أمر المسلمين بحصول ما يجده الكافرون من غلظة المؤمنين عليهم هو أمر المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتالهم، وهذه المبالغة في الأمر بالشدّة لأنه أمر لهم بأن يجد الكفار فيهم الشدّة، وذلك الوجدان لا يتحقق إلا إذا كانت الغلظة بحيث تظهر وتنال العدو فيحس بها، كقوله تعالى لموسى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، وإنما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوة، فإن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم، وهم أصحاب عدد وعُدَد فلا يجدون الشدّة من المؤمنين إلا إذا كانت شدة عظيمة<sup>١٢٦</sup>.

### مقصد الإصلاح السياسي

ويتضمن هذا المقصد سياسة الأمة حرباً وسلماً، والقواعد التعاملية للدولة في شتى المستويات، ومن الأمثلة الدالة على هذا المقصد ما يأتي:

<sup>١٢٥</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٣٠-٣١.

<sup>١٢٦</sup> المرجع السابق، ج ١١، ص ٦٣.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



**المثال الأول:** تحدث ابن عاشور عن هذا المقصد عند قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]، حيث يقول: "والكلام عتاب للذين أشاروا باختيار الفداء والميل إليه، وغضّ النظر عن الأخذ بالحزم في قطع دابر صنديد المشركين، فإنّ في هلاكهم خضداً لشوكة قومهم فهذا ترجيح للمقتضى السياسي العرضي على المقتضى الذي بُني عليه الإسلام، وهو التيسير والرفق في شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد كان هذا المسلك السياسي خفياً حتى كأنه ممّا استأثر الله به، وفي الترمذي، عن الأعمش: «أُتِمَّ في يوم بدر سبقوا إلى الغنائم قبل أن تحلّ لهم»<sup>١٢٧</sup>، وهذا قول غريب فقد ثبت أنّ النبي ﷺ استشارهم، وهو في الصحيح<sup>١٢٨</sup>.

**المثال الثاني:** ما جاء عند قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]، من التنبيه لأصل هام من أصول السياسية، يقول ابن عاشور: "أي إن من عادتنا التيقظ للحوادث والحذر مما عسى أن يكون لها من سيّء العواقب، وهذا أصل عظيم من أصول السياسة وهو سدّ ذرائع الفساد ولو كان احتمالاً إفضائها إلى الفساد ضعيفاً، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم، ولذلك يقول علماء الشريعة: إن نظر ولاة الأمور في مصالح الأمة أوسع من نظر القضاة، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق وهو الخوف من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه، والترصد لمنع وقوعه"<sup>١٢٩</sup>.

وبهذه النظرة التطبيقية المتميزة لابن عاشور، والتي أثرى من خلالها ما نظر له عن المقاصد القرآنية، وأسهم من خلالها في إخراج نموذج متفرد للمقاصد القرآنية تلوح بين جنباته رؤية متفردة، ونظرة متجددة للمقاصد يتضح لنا بجلاء مقدار الإسهام المقاصدي لابن عاشور في تفسيره في المجال التطبيقي، والحجم المبارك الذي قدمه على أطباق من ذهب ليرشد

<sup>١٢٧</sup> رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال، حديث رقم: ٣٣٦٥، ونصه ما يأتي: «قال سليمان

الأعمش: فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم...».

<sup>١٢٨</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٧٥.

<sup>١٢٩</sup> المرجع السابق، ج ١٩، ص ١٣١-١٣٢.

## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



السالكين، وينير الطالبين في مجال البحث والتنقيب عن المقاصد القرآنية، ويتضح لنا كذلك تميز ابن عاشور عن المناهج التي سبقته جملة وتفصيلاً من حيث النموذج الذي قدمه وتميز به، ويمكن تلخيص ما قام ابن عاشور في خدمة المقاصد القرآنية على النحو الآتي:

١- الاهتمام بالمقاصد القرآنية تنظيراً وتطبيقاً: وذلك من خلال تقسيماته التي تفرد

بها، وفاق بها من سبقه من المفسرين، والتي تتضمن التقسيم الآتي:

- المقاصد العامة: حيث اهتم بها وذكرها في ما موضع من تفسيره تنظيراً وتطبيقاً وقد سبق بيان ما يغني إعادته هنا.

- المقاصد القرآنية الخاصة: حيث سماها المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبليغها، وقد بسط فيها القول وقسمها إلى ثمانية مقاصد وقد سبق إيضاحها.

- المقاصد القرآنية الجزئية: حيث ساقها في سياقاتها المنفصلة تنظيراً وتطبيقاً وذلك في مواضع مختلفة سبق بيانها.

٢- الاهتمام بأغراض السور ومقاصدها: ويتضح ذلك من خلال، التنظير لها في مقدمات تفسيره وشرح أغراض المفسر، ومن تطبيقاتها حيث يقدم لكل سورة بأغراض ومقاصد تحتويها وتتضمنها.

٣- الاهتمام باللغة ومناحيها المختلفة: وصلة ذلك بالمقاصد بكون اللغة ذات أفانين كثيرة ومقاصد متعددة تفيدنا في توسيع المعنى الذي يوصل إلى التيسر وعدم حمل معنى اللفظ على جهة واحدة.

٤- الاهتمام بالرأي: وذلك من خلال تبنيه للرأي المحمود في التفسير الذي لا يخالف مقتضى النص، ولا يشرق ولا يغرب بعيداً عنه، وهو بهذا فتح باباً لإعمال المقاصد في التفسير بناءً على نظرية الرأي المحمود المنضبط.

إن مقارنة بسيطة بين تفسير ابن عاشور وغيره من المفسرين تقودنا إلى القول بتميز ابن عاشور وتفرده في الكثير من مفردات المقاصد القرآنية، وتميز نظريته نحو تفسير القرآن الكريم والتي ظهرت في إبداعاته المختلفة أثناء حديثه عن المقاصد وقد سبق بيانها وإيضاحها في مواضعها المختلفة أثناء الحديث عن حياته وآثاره، وتفسيره ومنهجيته فيه.

# التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



## الخاتمة والنتائج

وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج، ومن أبرزها ما يأتي:

١. توصل الباحث إلى أن أبرز ما يميز التفسير المقاصد عن غيره من أنواع التفاسير أنه يتناول أبعاد النصوص ومدلولاتها عبر قاعدة المقاصد، في حين تتناول أنواع التفاسير الأخرى النصوص بناءً على اعتبار الظاهر منها والحكم المصرح به كما في التفسير بالمأثور والتفسير الفقهي، وبناءً على اعتبارات قد لا تكون صائبة كما في التفسير العلمي والتفسير بالرأي المذموم، وكذلك من حيث الهدف فإن التفسير المقاصدي يهدف إلى إظهار الأسرار والحكم والمعاني والغايات التي اشتملت عليها الآيات، أو الأحكام التي نصت عليها الآيات، بينما بقية أنواع التفاسير الأخرى غالباً تهدف إلى الاهتمام بالمعنى الظاهري للآيات أو للألفاظ القرآنية، وتبين الأقوال في آيات الأحكام دون الالتفات إلى المقاصد منها، والحكم والمعاني فيها.
٢. ظهر للباحث أن نسب ابن عاشور ينحدر من سلالة أسرة علمية، تميزت بحرصها على العلم، واشتهرت بالإصلاح وخدمة المجتمع، ودفعت بابن عاشور لتتلمذ على أشهر علماء العصر، وزرعت فيه حب العلم والمساجد ومجالس العلم، فلا عجب أن يكون ابن عاشور، من رواد التجديد في الفكر وفي المقاصد، وأن يوصف برئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه، ولا غرو أن يكون من المصلحين الاجتماعيين الكبار.
٣. أثبت الباحث أن تفسير التحرير والتنوير من أهم التفاسير التجديدية المعاصرة التي ساهمت في عرض هدايات القرآن الكريم وكشفت عن مقاصده الكريمة، وعرضت تفسير آياته بأسلوب رائع، وطرح ممتع يأخذ بلب متصفحه، ويأسر انتباه سامعه، وينشي قلب متعاهده.
٤. أثبتت الدراسة أن أبرز ما يميز ابن عاشور اهتمامه البالغ بعلم المقاصد إلى جانب اهتمامه بالتفسير، ويُعدُّ من أهم الذين لفتوا الأنظار إلى مقاصد

# التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة، من خلال تأليفه لتفسيره التحرير والتنوير،  
ومن خلال تأليفه لكتابه مقاصد الشريعة، وكتاب النظام الاجتماعي في  
الإسلام، وكتاب أليس الصبح بقريب.

# التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



## قائمة المصادر والمراجع

- ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٩٧م).
- ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (عمّان: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط١، د.ت).
- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).
- بلقاسم الغالي، محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٧هـ/١٩٩٦م).
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م).
- حسن البناء، مقاصد القرآن الكريم، تحقيق: أحمد سيف الإسلام، (الكويت: دار الوثيقة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).



## التمييز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية،

١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م).

رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، (القاهرة: دار المنار، ط ٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م).

صلاح عبدالفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، (دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة،

١٤٢٩-٢٠٠٨م).

عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (المدينة المنورة: مجمع

الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، د.ت).

عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر

والتوزيع، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي،

(بيروت: دار المعارف، ط ١، د.ت).

فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية في التفسير، (الرياض: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط ٢،

١٤٠٣هـ/١٩٨٤م).

القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (د.ن).

المجلة الزيتونية، العدد: ٧-٨، السنة: ١٩٤٦م.

المجلة الزيتونية، المجلد ٧-٨، السنة: ١٩٤٦م.

مجلة جوهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي.

## التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره

نشوان عبده خالد قائد



مجلة جواهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، كلمة الأستاذ الطيب العنابي.

مجلة جواهر الإسلام، العدد: ٣-٤، السنة: ١٩٦٧م، مقالة لمحمد الحبيب ابن الخوجة.

محمد الطاهر ابن عاشور، مقدمات التحرير والتنوير، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (كوالالمبور: دار

التجديد، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الفكرية والثقافية بتونس، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط١،

١٩٩٣م).

مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، (مصر: دار المعارف،

ط٢، د.ت).

هيا ثامر مفتاح العلي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير،

(الدوحة: دار الثقافة، د.ط، ١٩٩٤م).